A.U.B. LIBRARY

843
F815cA

يوسف ابراهيم يزبك

في إمام القضاء

58761

سلسلة الكشاف الادبية

٤

مطبعة الكشاف بيروت

كتب للمؤلف :

الهوامش البشرية (نفدت نسخه)

النفط مستعبد الشعوب (نفدت نسخه)

١٤ تموز (نفدت نسخه)

المحررون (نفدت نسخه)

الى

رابطة المثقفين الديموقراطيين

امل لبنان الوحيد في نضاله الى الحرية

الى اخي وصديقي

انطوان ثابت

وهو في لبنان مثل الدكتور ماتيو في هذه القصة

مع اصدق ولائي واخلاصي

Crainquebille

رحم الله اناتول فرانس!

قصة « فتير امام القضاء » هي في الاصل قصة « كرنكبيل (١) » للكاتب الانساني الفذ اناتول فرانس ، واظن انها كانت تعد اعظم قصة في بابها قبل المجزرة البشرية . تروي حادثة « تافهة » تجري في كل ساعة ، وفي كل بلد ، ولكنها تجر ذيولا خطيرة من نكبات وآلام وشقاء ، والناس لا يهتمون لمعالجتها « لحقارة شأنها » .

وقعت بين يدي في ابان الثورة السورية (١٩٢٦) اذ كنت معتقلا ومقاماً اقامة اجبارية في كفر عقا ، ثم اميون ، من اعمال الكورة — حرسها الله من كل شر وانعم على بنيها الكرام بالخير والبركات — فأعجبت بالموضوع « التافه » الذي خلع عليه اناتول فرانس ثوباً رائعاً من سحر بيانه ، فانصرفت الى تعريبه محافظاً على الاصل ، مقيداً بالتعبير حتى الترجمة الحرفية .

ومرت السنون والترجمة راقدة بين اوراقي ، وقد اهملتها حتى كدت انساها ، الى ان طلبها مني الصديق نقولا شاوي لينشرها متسلسلة في « صوت الشعب » ، فرجعت اليها اتفحصها ، فاذا بي امام قصة أقل ما يقال فيها انها بقلم اكبر كاتب عرفته فرنسا بعد رجال الانسكلوبيدية ، يرف الادب الأرفع على سطورها ، وتختال الفلسفة الثورية بين عباراتها حتى صارت وقفاً على فئة المتعلمين والمثقفين ، اما الطبقات الشعبية التي تناول المؤلف الجليل شؤونها ومصائرها بالتحليل

(1) CRAINQUEBILLE

في شخص كرنكبيل وتصرف قضاته ومحاميه ، فيهات ان يتمكن بعض افراد هذه الطبقات من تفهمها . فأعدت القلم يعمل فيها حذفاً وزيادة وشرحاً لتصير شعبية معنى ومبنى فيتفهمها الجمهور في اقطارنا العربية على ضعف ثقافته ، ويستفيد من عبرها كل من استطاع الى القراءة سبيلا .

وقد كان تصرفي فيها الى هذا المدى البعيد ، وزيادتي في مواضع على قول المؤلف زيادة كبيرة ، وانشائي فصولا جديدة بين فصولها الاساسية ، مما كاد يخفي معالم القصة الاصيلة ، ويعد خروجاً على الامانة في النقل . ولكني حرصت الحرص كله على ان ابقى وفياً بالهدف الاجتماعي الذي رمى اليه اناتول فرانس ، وقد عاش مناضلا دونه طوال سني حياته الجليلة ، فانصرفت الى الباس كرنكبيل ثوباً قريباً لذهنية القارىء العربي وتقاليده ، مع الاحتفاظ باللون الذي صبغه به المؤلف العظيم ، فجاءت القصة انتاجاً مشاعاً بين عقليتين ، ولغتين ، يجوز ان تظل منتسبة الى الكاتب الفرنسي ، كما يجوز للمقتبس العربي ان يدعي في اخراجها الجديد بعض حق الابوة ... على اني اعيذ النفس ان تتعالى ويغرها الوهم ان هذا الاقتباس يحق لنا ان ندعي ملكا في انتاج الكاتب الخالد ، فالفضل الاول والاخر في نشر حكاية كرنكبيل ، انما هو لأستاذنا الطوباوي الجليل اناتول فرانس ، وما كنت في عملي هذا الا جندياً من اتباعه ، ينشر قصته بين بني قومه للعبرة والذكرى !

الحدث (بيروت) اول نوار ١٩٣٨ يوسف ابراهيم يزبك

طبع من هذا الكتاب :

٣٠٠٠ نسخة على ورق عادي

و ٢٦ نسخة

على ورق « بوفان »

مرقمة من ١ الى ٢٦

وبدل النسخة مئة فرنك

وقم النسخة

كرنكبيل

مشى كرنكبيل في سوق مونمارتر يدفع عجلته الصغيرة امامه ، وما كان له ان يقتني حماراً او بغلا لجرها وهو العامل الفقير ، يكسب خبزه اليومي من كفاحه اليومي، فناب عن الحيوان في عمله ورضي بنصيبه من هذه الحياة مختاراً لا يتبرم ولا يشكو

انه منذ خمسين سنة يبيع البقول والاثمار جوالا ، وقد عرفه سكان الشارع طيلة هذا العمر فالفوه ، فما ان يطل في اول السوق حتى يتنادى صبية الحي : « هذا العم بيل !! هـذا العم بيل !! » — يوجزون اسمه تحبباً — ثم يسرعون الى ملاقاته ويحيطون بـه وبعجلته ، فيداعبهم ويداعبهم ويبتسم لهذا ويقبل ذاك ويطعمهم بعض الاثمار ، فيرافقونه ضحوكين شاكرين الى ان يجتاز السوق كله وينفق بقوله واثماره او يبيع معظمها

ويطرب الصبية لكرم العم « بيل » بقدر طربهم لاستعاراته اللطيفة اذ ينادي بصوته الجذاب : « ربيع القلب ياخس ! خدود الزينه يا تفاح ! ياللي رماك الهو « ى »!! فيقهقهون ويصفقون باكفهم الصغيرة وتنظر اليهم امهاتهم مبتسمات ويشتري بعضهن من الشيخ الطيب القلب كرمى له

ولم يميز البائع يوماً في حبه بين ولد وولد فجميعهم سواسية في نظره ، الا ان جاكو الصغير ، الجميل العينين ، والطاهر المبسم ، والنظيف الثياب كان يثير حنانه اكثر من رفاقه الاخرين لانه يتيم . والعم « بيل » نشأ يتيما وذاق مرارة حرمان الحنان الابوي ، وقهرته الدنيا في فجر حياته ونغصت عيشه زمناً طويلا ، فطبيعي ان يشعر في اعماقه بان هذا الطفل يحتاج الى العطف اكثر من سواه

وجاكو الصغير اللطيف كان يستحق حنان البائع الشيخ مرتين : يستحقه لانه يتيم ، ويستحقه لانه كان يقدر ذلك الحنان تقديراً عظيما ، فهو منذ الساعة السابعة ينتظر صديقه الكريم في فم السوق وما ان يراه مقبلا بعجلته من بعيد حتى يثب راكضاً ، ملوحاً بيديه الصغيرتين ، والهواء يعبث بشعره الاشقر الناعم ، فيبشر جدته بان العم « بيل » قادم بقوله ، ثم ينط من باب الى باب عند الجيران ناقلا اليهم هذه البشرى العظيمة !

ووقع يوماً جاكو الصغير وجرحت رجله فاضطربت جدته

اضطراباً عظيما طير عقلها ، وارغمت الطفل على البقاء في فراشه وجلست الى جانبه تبكي . ولما وصل كرنكبيل الى سوق مونمارتر ولم ير جاكو بين مستقبليه شعر بانقباض ، ولم يترك له الصغار الفرصة للسؤال عنه فان اصواتهم تعالت من كل صوب حوله : « عم بيل ! عم بيل !.. جاكو مريض !.. هو في البيت !.. جدته لم تسمح له بالخروج !.. رجله مجروحة !.. وقع امام باب المطبعة !.. جاكو مريض يا عم بيل !.. »

ولاول مرة في حياته الطويلة احس البائع العجوز ان قوة موجعة تشد على قلبه ، فانقبض منه الصدر ، وما عاد صوته يرتفع للمناداة على بقوله ، بل مشى مقاداً بجاذبية خفية الى بيت جاكو

منظر مؤثر : العم بيل واقف قرب السرير ، وقد نزع قبعته عن رأسه ودمعة حائرة تجول في عينيه ، وجاكو الموجوع ينظر اليه باطمئنان ، والجدة المحدودبة القلقة تكاد تخنقها العبرات !..

مكث البائع الشيخ عند صديقه الصغير اكثر من ساعة يواسيه ، ولولا بقوله واثماره لمكث لديه النهار بطوله ، ولكن « زبوناته » استعوقنه فارسلن الاولاد يستعجلونه ، فودع جاكو مرغماً بعد ان حمل اليه غمرة من انواع الفاكهة التي كانت معه

وقد ظل الصغير اسبوعاً كاملا طريح الفراش وظل البائع يعوده كل يوم في الصباح والمساء ، حاملا اليه اطيب الاثمار ، ولما شفي

وخرج مع رفاقه لملاقاة العم بيل ، كان للاثنين فرحة العيد السعيد

وهكذا احب سكان الحي كرنكبيل ، وهكذا احبهم بدوره ، الا عجوزاً بخيلا شذ عن المجموع ولم يقو البائع الجوال على احترامه !

لم يكن العم « بيل » ليعرف الحقد والبغض الى قلبه سبيلا ، ولكن ذلك الشحيح هو الذي اضطره لان ينفر منه اذ كان يعتب عليه دوماً «لتبذيره!» باطعام الاولاد عنباً وبرتقالا ، ويتهكمه ، وينذره بالافلاس والخراب اذا ما هو استمر على هذا « الجنون ! »

وتألم العم من ذلك الغني الردي ، وانكسر منه خاطره ، فقص حكايته على كل واحدة من « زبوناته » بمفردها ، وصار يشعر بحس داخلي يدفعه لان يفضح البخيل كل يوم ويعيد قصته . وكل سيدة سمعت الخبر كانت تنعت ذلك الغني بما ينطبق عليه وعلى امثاله ، فاخذ العم « بيل » يردد ما يسمعه من النساء وانتهى به الامر ان استظهر تلك الاقوال لكثرة تكرارها وجعلها « لازمة » يختم بها حكايته كلما قصها على سيدة : « اف ، اف !... يا له من وسخ دني !.. يعيش كالكلاب !.. الذهب مكدس في صناديقه وبطنه فارغ !.. يا عيب الشوم : يستعبده المال والمال خادم لقضاء الحاجات !.. تقبري المال !.. ضحكة من افواه هؤلاء الصبية الملائكة تساوي كنوز الارض ، ونظرة اليهم اغلى من ثروات الاغنياء جميعاً ! ... »

وحاولت السيدة تالان ان تمازحه يوماً فقالت له : اخفض صوتك يا عم « بيل » فقد يسمعك احد الاغنياء ويغضب عليك

وليس مثل كرنكبيل ، وهو العامل الشريف الذي قضى عمره الطويل يشقى في عمله ، طليقاً من قيود المجتمع الكاذب ، حراً مستقلا في « ارائه » — ليس مثله من يسكت عن ذلك التهديد فاجاب بشمم:

— وما يهمني غضب الاغنياء ؟ ...

— صحيح ! .. انهم يشترون منك لان بقولك واثمارك هي احسن البقول والاثمار ، وانت تقنع بالربح الحلال ، فلا يستطيع بائع آخر ان يزاحمك ما دامت اسعارك بخسة . نعم : غضب الاغنياء لا يهمك ، وهم لا يغضبون اذا كانوا ينتفعون . وهب انهم استاؤوا من كلامك فاستياؤهم لا يغير الحقيقة ... دعهم يشربوا البحر ! ...

واصغى كرنكبيل الى محدثته مسروراً وقال : صحيح ... لقد صدقت ، والله انك فيلسوفة ... كنت اشعر بهذه الحقيقة ، وافهمها ، ولكني اعجز عن تفسيرها ، ولساني لا يطاوعني ... اما انت فتعلمة ...

واطرق البائع الأمي قليلا ثم قال : العلم ... شيء مفيد ! هو اقوى من المال ، انه اعظم من كل شيء على الارض ... انا شقي بائس ، لم اتعلم لاني ولدت فقيراً ونشأت فقيراً فاضطررت منذ الصغر

لان اشتغل واكسب عيشي ، وحرمت فوائد العلم ولذته !

وحنت السيدة تالان على محدثها وقالت له :

— لست وحدك شقياً يا عم « بيل » ، فانا واهلي وجيراني ، بل اكثر البشر بائسون مثلك لانهم ضعاف ، وهم ضعاف لانهم فقراء ، وانهم فقراء لانهم متفرقون ، متنابذون ... والمجتمع سيظل على هذا الظلم ما دام في قبضة من الاغنياء وحلفائهم الاساقفة يسيطرون عليه ...

لم يفهم البائع العجوز معنى هذا الكلام كله ولكنه كان يثق بفائلته ، ويحترمها ، ويطمئن الى انصافها لانه لم يشعر يوماً انها حاولت مساومته لتربح من تعبه وان فلساً واحداً ، في حين ان بعض حديثي النعمة كانوا يناقشونه عشر دقائق ليشتروا منه الملفوفة برأسمالها ! لم يفهم كرنكبيل معنى الحديث كله ولكنه استغرب ان تحشر السيدة تالان الاساقفة مع الاغنياء ، واكثر ظنه ان الرؤساء الذين يحيط بهم الجلال والوقار في كاتدرائياتهم ، وتساورهم العظمة والجبروت في قصورهم ، ويتسابق المؤمنون للسجود على اقدامهم وتقبيل ايديهم ، انما هم اناس طيبون وانهم فوق البشر ، فقال :

— نعم يا سيدة تالان ، ان معظم الاغنياء بخلاء وطماعون لا يحبون احداً ، وقد خبرت ذلك بنفسي طيلة خمسين سنة قضيتها في بيع الخضار ،

اما رؤساء الدين فلا اقول فيهم شيئاً لاني لا اعرفهم ، وجارتي السيدة دوبوا تحبهم وتجلهم وتقول عنهم انهم سياج الفضيلة والمحبة

مفتاح الشقاء

وصل العم « بيل » الى دكان السيدة بايار ، بائعة الاحذية ، في ساعة الظهر ، فاستوقفته البائعة وخرجت تقلب البقول

ـــ كراثك لا ينفع!.. بكم الربطة ؟

فغضب الشيخ اذ سمع تحقير بضاعته واجاب بخشونة : ما عندي احسن منها ياست ... وثمن الربطة ثلاثة قروش

ـــ ايش ؟... ثلاث كرانات عاطلة بثلاثة قروش ؟

ورمت الربطة على البقول باشمئزاز وازدراء

وفي تلك الدقيقة اقترب شرطي السير ، ذو الرقم ٦٤ ، واوعز لكرنكبيل بالمشي ، فرأى البائع العجوز ان الامر مشروع ولا غرابة فيه ، فقد تعود السير وراء عربته من طلوع الفجر الى غياب الشمس طيلة خمسين سنة ولم تبد منه اية مخالفة للانظمة والقوانين ، فحث

السيدة على شراء ما يوافقها لانه يريد الامتثال لامر الشرطي . فاجابته السيدة بايار بخشونة :

— ... ولكني اريد ان اختار الباقة المليحة

ثم عادت تقلب باقات الكراث حتى اختارت احسنها فضمتها الى صدرها ، كما تضم القديسات في صور الكنائس سعف النصر الى صدورهن ، وقالت له :

— ساعطيك قرشين ونصف القرش ، وهي تكفي ... انتظرني لاتيك بها من الدرج فاني لا احمل دراهم

ودخلت الى دكانها تضم الباقة فوجدت سيدة تنتظرها وعلى صدرها طفل فاسرعت تنتقي للصغير حذاء واهملت البائع المنتظر امام الباب

وفي هذه الدقيقة كرر الشرطي امره لكرنكبيل بان يمشي

— اني انتظر فلوسي

فقال الشرطي بحزم : لم اقل لك ان تنتظر فلوسك بل اني امرتك وآمرك بان تمشي امثلا يعرقل وقوفك السير !...

... لقد تعلم كرنكبيل وهو يجر عجلته منذ نصف قرن كامل في شوارع باريس ان يطيع ممثلي الحكومة ، ولكنه وجد نفسه في هذه المرة في حالة استثنائية : اي انه بين حق له وواجب عليه ، ولم يكن ليتفهم روح الشرع ويعلم ان التمتع بالحق الشخصي لا يعفو المرء من

اتمام الواجب نحو المجتمع ، بل كان يقدر حقه كل التقدير ، وحقه قرشان ونصف القرش وقف ينتظر قبضها ، فلم يبال كثيراً بالواجب عليه وهو ان يدفع عجلته الى الامام ، وان يتابع سيره الى الامام دون ان يتوقف ، فظل في مكانه

وبهدوء ، وبلا غضب ، امره الشرطي للمرة الثالثة بان يمشي ...

وكان ذو الرقم ٦٤ صبوراً طويل الاناة ولكنه سريع في ضبط المخالفات ، بعكس بعض زملاء له كثيري التهديد والغضب ولكنهم لا يعاقبون احداً قط . وكان ، على ما فيه من رياء ، خادما نشيطاً وجنديا امينا جمع بين جرأة الاسد ونعومة الطفل ولا يعرف الا واجبه ، فقال :

ـــ الم تسمع ؟ قلت لك ان تمشي

وكيف يمشي البائع الشيخ وهو يرى لوقوفه عذراً جليلا ويعتقد انه مقبول قبولا حسناً ، فبسطه على مسمع الشرطي بسذاجة ، وبلا تنميق ، قال :

ـــ لا حول ولا ... او لم اقل لك اني انتظر قبض فلوسي

فما غضب ذو الرقم ٦٤ ، بل سأله : اتريد ان انظم ضبطاً بمخالفتك؟

وعند استماع كرنكبيل هذا التهديد الناعم رفع كتفيه بمهل ، والقى على الشرطي نظرة الم ثم تطلع الى السماء كأنه يقول :

ـــ « يشهد الله علي ! او تراني احتقر القانون ؟ أأنا اهزأ

بالمراسيم والاوامر المسنونة لامثالي ؟ لقد افقت مع الفجر لاركض وراء عملي فكنت في سوق الخضرة منذ الساعة الخامسة، ومنذ الساعة السابعة وانا الهب يدي بدفع عجلتي صارخاً منادياً : « على الملفوف والجزر والكراث ! » وقد دلفت الى الستين ونهكتني المتاعب ومع ذلك فانك تتهمني بأني ارفع علم التمرد الاسود ... انك تهزأ مني ولكن هزءك جارح مرعب

وما كان الشرطي ليتفهم معنى تلك النظرات المؤلمة التي جالت في عيني البائع الشيخ ، او انه لم ير فيها عذراً يبرر عصيانه ، فسأله بصوت قاس سريع : هل فهمت ما قلته لك ؟..

وكان ازدحام العجلات في هذه الاونة ، وهي ساعة الظهر ، قد بلغ اشده في سوق مونمارتر ، فتلاصقت الطنابر والحافلات والسيارات والعربات واشتبكت بعضها ببعض، وتعالت الشتائم ، وارتفع الصراخ والتأفف من هذا الوقوف المزعج، واخذ الحوذيون وخدام القصابين يتبادلون السباب ويتقاذفون عبارات التحقير ، وانقض سواقو الحافلات بالاهانات على البائع العجوز على انه سبب هذه المرقلة

وتسارع الفضوليون الى رصيف الطريق يشاهدون هذا النزاع ، ورأى الشرطي ان الناس يراقبونه فما صار يبالي الا باظهار سلطانه ، فسحب من جيبه دفتراً صغيراً « مزفتاً » وقلماً قصيراً

وكان البائع الشيخ ما يزال يفكر انه ينتظر استيفاء حقه ،

ويخضع لمحرك في اعماق صدره يهتف به ان يقف في انتظار قبض القرشين والنصف ، وان حقه هذا هو اعظم جداً من الواجب الذي يفرضه عليه المجتمع ... وفي تلك الدقيقة دخل دولاب عربته في دولاب عربة حلاب ومنعه من التقدم او التأخر ، فغضب واخذ ينتف شعر رأسه صائحاً في وجه الشرطي :

— لا حول ولا ... لقد قلت لك يا هذا اني انتظر مالي ... افلا تتقي الله ؟ ...

وظن الشرطي ان كرنكبيل اهانه بهذه الكلمات التي تعبر عن يأس اكثر منها عن تمرد . ولما كان معظم رجال الشرطة اعتادوا ان يلبسوا كل تحقير يوجه اليهم لباساً خاصاً هو عبارة: « تقبر البقر ! »، وصاروا يخيل اليهم انهم يسمعون هذه الجملة سواء اسمعوها ام لم يسمعوها، حتى باتت من تقاليدهم القانونية المقدسة ، فقد اسمع الشرطي اذنيه فجأة هذا التعبير المهين وصاح في وجه البائع :

— ماذا قلت ؟ ... « تقبر البقر ! » ... اذن فاتبعني

وامتلأ قلب كرنكبيل حزناً وتولته الدهشة فاخذ ينظر الى الشرطي بعينيه الكبيرتين اللتين حرقتها حرارة الشمس ، ثم شبك ذراعيه على صدره وصرخ بصوت مكسور خرج من قمة رأسه ومن اخمص قدميه :

— كيف ؟ ... أأنا قلت « تقبر البقر ! » ؟ ... من ؟ ...

أأنا قلت هـذا ؟ ...

وقابل خدام المقاهي ومستخدمو التجار اعتقال كرنكبيل بالضحك ، في حين ان الشرف والمروءة والتضامن البشري يوجب على الناس الذين يشهدون مثل هذا المشهد المؤلم ان يحولوا دون وقوع الحيف على ضعيف ، وان يردوا الظلم عن فقير بائس بريء ، ولو ان عند اولئك الضاحكين الشامتين ذرة من عزة النفس لما سمحوا بان يعتقل كرنكبيل المسكين بتهمة هو براء منها ...

واتفق ان شيخاً يدل مظهره على الوقار والجلال شهد هذا الحادث فحز الالم في نفسه ، وثارت الكرامة الانسانيـة في صـدره ، فشق صفوف المتجمهرين والفضوليين واقترب من الشرطي وقال له بصوت خفيض ولهجة ناعمة حازمة :

ـــ لقد فهمت خطأ ، فهذ الرجل لم يهنك

ورأى الشرطي في محدثه مظهر المكانة والاهمية فلم يجرأ على تهديده وانما اكتفى بان يقول له :

ـــ لا تتدخل في شأن لا يعنيك

ـــ هذا شأني وشأن كل مواطن منصف يحترم الحق والعدل ، ومن واجب كل انسان ان يمنع ذوي السلطان من الاستبداد، ويحول دون الجور ، ويظاهر الضعاف . ان ما قاله هذا البائع العجوز ليس

فيه ما يهينك وانما هو تأفف واستيئاس

— اذن ، تفضل ورافقني الى المخفر فتعرض الامر على المفوض

وكان كرنكبيل في اثناء هذا الحوار يردد متسائلا : « أأنا ؟... أأنا قلت تقبر البقر ؟... »

وفيما هو يبدي دهشته واستغرابه اقبلت بائعة الاحذية وفي يدها ثمن الكراث ، وامسك الشرطي في تلك الدقيقة بعنق البائع ليقوده الى المخفر فظنت المرأة ان من يقاد الى السجن يموت حقه ! فوضعت المال في جيب مئزرها ، ورجعت الى عملها مطمئنة !

وافاق العم « بيل » الى ما هو فيه فوجد عربته محجوزة ، وحريته مقيدة ، وهو على قاب قوسين من الشقاء ، وقد غربت شمس رجولته فاستجار متألماً :

— يا الله !...

ولما وصل الشاهد الوقور الى المخفر وقابل المفوض قدم له نفسه: اسمه دافيدماتيو ، وهو دكتور في الطب ورئيس مستشفى امبرواز ، وحامل وسام جوقة الشرف من درجة ضابط . ثم صرح انه شهد الحادث اذ اوقفه ازدحام العربات في الطريق ، وهو يؤكد ان البائع لم يحقر الشرطي وانما الشرطي قد خيل اليه خطأ انه أهين

ولو ان هذه الشهادة اديت في زمن غير ذلك الزمن لكانت كافية

لتثير المفوض في اجراء الحق، لكن رجل الامن لم يأبه لها لان العلماء في فرنسا كانوا في تلك الاونة موضوع تظن وشبهات فامر بوقف البائع في المخفر . وفي اليوم الثاني شحنته عربة السجن مع خليط من المجرمين بعضهم فوق بعض الى الحبس العام .

دخل كرنكبيل السجن فلم يشعر بالم او صغارة ، وقد استرعت انتباهه نظافة الحيطان والزجاج فقال : اما ان هذا المحل نظيف ، فوالله انه لنظيف ، ويستطيع الانسان فيه ان يتناول طعامه على الارض

ولما ترك لوحده مد يده الى الدكة الخشبية ليجلس عليها فوجدها ملصقة بالحائط فقال مستغرباً بصوت عال : حقاً اني ما كنت لاخترع مثل هذا الاختراع المدهش !

ثم جلس وطفق يدير ابهاميه احداهما على الاخرى ، مستغرقاً في دهشته ، وبدأ السكوت والعزلة يرحان به ، فتضجر وتبرم واستولى عليه القلق لصير عربته المحجوزة ، وهي ما تزال ملأى بالملفوف والجزر واللفت والهندباء والطماطم والخس ، وصار يتساءل مضطرباً عما آلت اليه حالها ، واين دسوها .

قضى العم « بيل » يومين في السجن وقد فصل بينه وبين العالم فصلا تاماً ، فلا يعرف من امر الحياة العامة شيئاً ، وفي اليوم الثالث سخرت المحكمة احد المحامين الجدد للدفاع عنه ، وهو الاستاذ ليميرل اصغر اعضاء نقابة المحامين في باريس سناً ورئيس احد فروع

« عصبة الوطن الفرنسي » ، فزاره في محبسه وعرفه بنفسه وطلب منه ان يقص عليه حكايته .

جرب كرنكبيل ان يحكي ما جرى له فوجد عناء ، لانه لم يتعود الخوض في غير موضوع بيع البقول ، وكان يشعر بحاجة لان يساعده المحامي على ايجاد العبارات اللازمة ولكن الاستاذ ليميرل ، رئيس فرع « عصبة الوطن الفرنسي » كان لاهياً ساعتئذ بالتفكير في قضية ثانية ، في قضية سياسية : فقد كان حزبه يبحث في ترشيح احد اعضائه لمقعد شاغر في المجلس النيابي ، والاستاذ ليميرل يرى في نفسه الكفايات كلها لان يدافع عن حقوق الامة باسرها ، فلم يبال كثيراً ، ولا قليلا ، بالدفاع عن كرنكبيل واخراجه من مأزقه ، ولم يكلف نفسه ان يجاريه في حكايته ويساعده على التعبير ، بل انه لم يثق به منذ بدأ حديثه ، فمال بفكره عنه واخذ يهز برأسه وهو يقلب اوراقاً بين يديه ، ويصفر انغاماً وطنية حماسية ، ويرمي على السجين بين الحينة والحينة نظرة الشك ، ويرفع قليلا بشفته العليا ليكشر عن ابتسامة الازدراء بحديث البائع العجوز ، واخيراً نظر اليه بعين متهكمة وقال :

— عجيب يا كرنكبيل !... اني لا اجد حرفاً مما تقوله في ملف الدعوى .

ففتح السجين عينيه بشدة ، ومد عنقه الى اوراق الاتهام لعله يرى

بين سطورهـا السوداء والحمراء ، والاختـام والتواقيع ، شبحاً من بصيص الاستيناس

وتضجر المحامي من « انكار » المتهم ، فمد يده الى شاربيه الاشقرين يفتلهما ، ثم التفت الى « موكله » وقال له بلهجة الناصح :

ـــ اسمع يا كرنكبيل : انه من الخير لنا ان نعترف بذنبنا ، فهذا الانكار المطبق الذي تصر عليه لا يفيدنا بل يضر بنا ... لا ، لا تعترض ، اسمع نصحي فانا مخلص لك : الاعتراف بالحقيقة يخفف كثيراً عنا ، واني اؤكد لك ان معظم الذين يبوحون بذنوبهم يخلصون من العذاب الاليم . فانا ، وقد خبرت نفسية القضاة في مثل هذه الظروف ، ورافقت اكثر المحاكمات التي جرت في قصر العدل وكان المتهمون يبوحون فيها بما اقترفوه ، انصح لك بان تعترف بالحقيقة ...

هذه المفاجأة في ابداء مثل هذا النصح اشدهت كرنكبيل ، وقد بغت الشيخ وحار في ما يفكر ! انه اراد ان يغالط اذنيه في ما سمعتاه فلم يتمكن ! هوذا « المحـامي » عنه يقنعه بوجوب الاعتراف بذنبه ، ويكرر له هذه النصيحة ... ولكنه في الوقت عينه يعرف ويشعر في اعماق نفسه انه بريء ، وانه لم يهن الشرطي فبماذا يبوح ؟

حار كرنكبيل في التناقض الواقع فيه : فقلبه مطمئن لانه لم يعتد

على احد، و« وكيله» يقنعه ويلح عليه بان يعترف بالتهمة...ولو لم يكن الاستاذ ليميرل اكثر منه فهما بدخائل الامور لما ابدى له مثل هذا النصح !

اطرق كرنكبيل قليلا ثم قال في نفسه : ترى ، اكون انا الفقير الامي الذي عجزت عن الكلام العادي ، والتعبير عن فكري، اكثر معرفة بالحقيقة من هذا الشاب العالم ، الانيق في ملبسه ، الذي يتكلم بفصاحة لا افهمها ، والذي انفق عليه ذووه قناطير الذهب في المدارس؟ لا ، لا... هذا غير ممكن . اذن ، فلاسمع منه ...وبعد ، فمن يدري ، الا يجوز ان اكون مخطئاً ؟

ولكن بماذا يبوح كرنكبيل ؟ انه لو عرف ما يجب عليه ان يبوح به لكان قد فعل حالا ...

كرنكبيل امام العدل

سيق جيروم كرنكبيل الى دار القضاء ليحاكم بتهمة اهانة احد رجال الامن العام ، واجلس على مقعد المتهمين في وسط غرفة جميلة قاتمة، فرأى القضاة والكتاب والمحامين مرتدين البسة وشارات رسمية، والحجاب متقلدين السلاسل ، والدرك والنظارة والشرطة واقفين سكوتاً وراء الحاجز ورؤوسهم مكشوفة اجلالا لقداسة المكان ، وكان الرئيس يتصدر القاعة ويحيط به قاضيان يعاونانه ، وقد علق كل منهم الاوسمة المزخرفة البراقة على صدره ، فامتلأ قلبه رعباً وتمثل له جلال القضاء عظيما رهيباً .

وأدار المتهم طرفه في القاعة فوجد تمثال الجمهورية وصليب المسيح ملصقين بالحائط ، واحدهما قرب الاخر ، كأن الشرائع كلها من بشرية والهية منصبة على رأسه ، وكان كرنكبيل ساذج التفكير لا

يفهم شيئاً من التفلسف فلم يتساءل عن معنى وجود هذين التمثال والصليب احدهما قرب الاخر في هذا المكان الخطير ، ولم يفكر فيما اذا كانت الجمهورية والمسيح يتفقان في المحكمة ، ولم يكن مثقفاً ، او متعلماً تعليما عادياً على الاقل ، ليدرك ان التعاليم البابوية والشرائع الكنسية تعاكس دستور الجمهورية الفرنسية وقانونها المدني في كثير من الشؤون . ومن المعلوم ان المراسيم البابوية باقية لم تلغ ، ولا تزال كنيسة المسيح على عادتها تكرز وتقول ان ليس من سلطة شرعية الا تلك التي تضعها او تقرها مجالسها ، في حين ان الجمهورية الفرنسية تدعي انها غير مرتبطة بالسلطان البابوي ، فلو اتيح لكرنكبيل ان يتفهم هذه المسائل كلها لخاطب قضاته بهذا الكلام الحق قائلا :

— ايها السادة القضاة : ان رؤساء الجمهورية لم يتعمدوا اويتثبتوا بزيت الميرون المقدس ، وقد نشأوا وتربوا تربية علمانية بحت ، ولم يقوموا باي واجب تفرضه الكنيسة على المؤمنين ، فهذا الصليب المعلق فوق رؤوسكم يعلن اذن بفم الاحبار ودواوين الاساقفة ان لا حق لكم بان تقضوا في الناس ، فهو امايكون هنا ليذكركم بحقوق الكنيسة التي لا تعترف بحقوقكم ، او ان ليس لتعليقه فوق رؤوسكم من معنى معقول ، وفي الحالين انتم مخطئون ! ..

لم يكن كرنكبيل ذكياً معلماً ليخاطب قضاته بهذا الكلام ، ولو

فعل ذلك لكان باستطاعة رئيس المحكمة ان يرد عليه قائلا :

ـــ لقد كان ملوك فرنسا على خلاف مستمر مع خلفاء بطرس ايها المتهم ، وهذا غليوم دي نوغاري (١) قد طرد من احضان الكنيسة لانه اهان الحبر الاعظم ولكنه لم يطرد من منصبه بسبب هذا الامر التافه ... ان مسيح محكمتنا هذه هو غير مسيح غريغوريوس

---

(١) Guillaume de Nogaret قاضي فرنسا الاكبر في حكومة الملك فيليب الجميل ، وقد عهد اليه ان يلقي القبض على البابا بونيفاس الثامن (١٣٠٣) الذي اشتهر بخلافاته العديدة وبغضه للملك المذكور لاسباب سياسية اهمها ان الملك فيليب الجميل سجن اسقف « باميه » فاحتج البابا على عمله برسالة شديدة اللهجة ثم حرمه من الكنيسة . واحب الملك ان يستثير حقد الشعب على البابا ويكسب عطف رعيته فدعا المجالس العمومية ، وهي مؤلفة من الاكليروس والاعيان والشعب ، للاجتماع في ١٠ نيسان ١٣٠٣ في كاتدرائية سيدة باريس ، وانتفضت المجالس المذكورة بيأس وحزم على حكم البابا ووقفت تؤيد مليكها في عمله . وكان الملك فيليب الجميل اول ملك متمدن ، نسبياً ، في فرنسا . قاوم الحكم الاقطاعي والسلطة الروحية (مات سنة ١٣١٣)

السابع (١) وبونيفاس الثامن وانما هو مسيح الانجيل الذي لم يكن يعرف الشرائع الكنسية ولم يسمع قط بالمراسيم البابوية

ولجاز لكرنكبيل ان يجيب الرئيس بقوله :

— ان مسيح الانجيل كان رجلا ديمقراطياً عاش ليحرر البشر من الظلم ونير الاستعباد ، وقد احتمل حكما ما تزال الشعوب المسيحية تعده منذ تسعة عشر قرناً حتى اليوم افظع خطأ قضائي ، فهل تجرؤ

---

(١) من اعظم الاحبار وقد اشتهر بحروبه ضد هنري الرابع عاهل المانيا وباعتقاله اياه في كانوسا بسبب الاختلاف على منح الالقاب الكنسية ... وقد ظلت الحرب مستعرة بسبب منح الالقاب المذكورة بين احبار الكنيسة وملوك المانيا من سنة ١٠٧٤ حتى سنة ١١٢٢ (فقط !!..) ولم تحل هذه المعضلة وترحم ارواح العباد ، وتوفر دماءهم الا في المجزرة الهائلة بين جنود هنري الرابع وجنود الباباغريغوريوس السابع اذ فصلت السلطتان احداهما عن الاخرى فتولى الملك السلطة الزمنية وتولى الحبر الاعظم السلطة الروحية . وقد كان غريغوريوس السابع هذا ذا شكيمة وعزيمة ، واشتهر بوضعه القوانين الكنسية واخصها « قانون تبتل الكهنة » (عن لاروس وسواه)

ياسيدي الرئيس على ان تحكم علي باسمه ، وان ثماني واربعين ساعة سجناً ؟

لكن كرنكبيل لم يكن ليفكر باقل مسألة تاريخية او فلسفية او اجتماعية ، فظل اسير دهشته ، وما يحيط به يولد في نفسه رأياً كبيراً عن عظمة القضاء ، وقد غمره الاحترام والوجل فعزم على ان يودع ذنبه ذمة المحكمة بالرغم من انه ما كان يعتقد في اقصى ضميره انه رجل مجرم ، غير انه طفق يشعر في هذه القاعة الوقور ان ضمير بائع بقول مثله يعد شيئاً طفيفاً امام رموز الشريعة وقضاة الهيأة البشرية . ناهيك بان محاميه كاد يقنعه انه لم يكن بريئاً !

كيف حكم على كرنكبيل

لم يطل استجواب المتهم اكثر من ست دقائق، ولم يجب كرنكبيل على الاسئلة التي القاها الرئيس عليه، ولو فعل لانجلى التحقيق عن اظهار الحقيقة او بعضها، ولكن البائع المسكين لم يتعود النقاش في مثل هذه المواقف، وهو لا يعرف الكر والفر في ميادين الجدل في المحاكم. وكان وقار المكان يزيد في وجله واضطرابه فلا يستطيع فتح شفتيه، فطفق الرئيس يلقي الاسئلة عليه ثم يجيب عن المتهم اجوبة تزيد في ارهاقه وتثبيت التهمة على رأسه !

ولما طرح الرئيس جميع الاسئلة التي تشكل الجرم ختم الاستجواب بقوله :

ـــ اذن، فانك تعترف بانك صحت في وجه الشرطي قائلا : « تقبر البقر ! » ؟

ـــ قلت « تقبر البقر » لان حضرة المأمور قال « تقبر البقر » وعندئذ قلت : « تقبر البقر ! »

وكان العم « بيل » يقصد بجوابه هذا انه لما سمع الشرطي يتهمه هذه التهمة غير المنتظرة ، وهو براء منها ، اندهش كل الاندهاش وردد العبارة الغريبة التي نسبت اليه زوراً ولم يتلفظ بها مطلقاً . نعم ، انه كرر عبارة « تقبر البقر » على انه كان يتساءل : أأنا اتفوه بهذا الكلام المهين ؟ أتستطيع ايها الشرطي ان تصدق هذا ؟

لكن الرئيس لم يفهم هذا القصد في جواب المتهم وانما فهم ان كرنكبيل كان في موقف رد الاهانة بمثلها ، فسأله :

ـــ اتزعم ان الشرطي صرخ قبلك بهذه العبارة فقابلته انت بالمثل ؟

وحار الشيخ جواباً ، فهو لا يستطيع التعبير عما في فكره ، ويجد في الكلام في هذا الموضوع الخطير عناء شديداً فامسك عن الجواب . فقال له الرئيس :

ـــ انك لا تصر على الانكار ... حسناً تفعل !

ونودي على الشهود ، فدخل اولهم الشرطي ذو الرقم ٦٤ واقسم على انه يشهد الحق ، وانه لا يشهد الا الحق ، ثم بدأ يؤدي شهادته بلا وجل ، قال :

— « في ساعة الظهر من اليوم العشرين من شهر تشرين الاول، شاهدت وانا اقوم بوظيفتي شخصاً في سوق مونمارتر، لاح لي انه بائع جوال، ممسكا بعجلته وواقفاً بها بقرب الدكان ذي الرقم ٣٢٨٠ وقد سبب وقوفه ازدحام العربات وعرقل السير فطلبت منه ثلاث مرات ان يمشي فرفض الامتثال . ولما نبهته اني سانظم ضبطاً بمخالفته النظام اجابني صارخاً : « تقبر البقر !» فخيل الي انه اهانني بهذه العبارة »

اصغى القضاة الى شهادة الشرطي الموزونة الموجزة بارتياح .

ثم دخلت السيدة بايار بائعة الاحذية، ومسببة الحادث، فشهدت انها لم تر ولم تسمع شيئاً ! ..

وادخل الدكتور ماتيو فقص الحادثة على المحكمة بحذافيرها، وقال : وبما اني شاهدت الامر بنفسي فاني اصرح علناً ان الشرطي كان واهماً في ظنه ان البائع اهانه . وقد اقتربت منه ساعتئذ وافهمته انه مخطىء في ما خيل اليه انه سمع، وان كلام العجوز ليس فيه ما يحقره، فلم يقتنع واصر على وقف كرنكبيل ثم دعاني لمرافقته فرافقته واعدت قولي على مسمع من رئيسه

— تفضل واجلس لنسمع ما يقوله الشرطي في شهادتك

وادخل الشرطي الى المحكمة ثانية فسأله الرئيس :

— الم يقل لك حضرة الدكتور ماتيو ساعة اوقفت المتهم انك

اخطأت في فهم كلامه ؟

— اظن انه اهانني يا حضرة الرئيس

— وماذا قال لك ؟

— قال لي : «تقبر البقر ! »

فتعالى الضحك والضوضاء بين الحاضرين .

واستاء الرئيس من جواب الشرطي فامره حالا بان ينسحب ثم حذر الناس انه يخرجهم من القاعة فيما اذا تكررت هذه الحركات غير اللائقة . فاخذ محامي كرنكبيل يلوح بكمي ردائه الواسعين كأن النصر قد بات حليفه، وظن الحاضرون ان البائع المسكين سيخرج عما قليل من المحكمة بريء الساحة

عاد السكون ، فوقف الاستاذ ليميرل وبدأ دفاعه بالثناء على الشرطة « اولئك الخدام المتواضعين ، حراس الهيأة الاجتماعية الذين يقاسون المشقات المضنية ويجابهون الاخطار المتوالية ، ويأتون من ضروب البطولة في كل يوم انواعاً ، لقاء مرتب زهيد لا يكاد يسد رمق عيالهم ، وهم جنود قدماء ، كانوا ويظلون جنوداً ، اجل يا سادتي القضاة : انهم جنود الوطن وفي هذه الكلمة مجلى عظمة الامة كلها . »

واندفع المحامي يتغنى بامجاد الجندية ، ويتغزل بمفاخرها وفضائلها ،

ويشيد بمزاياها العالية، وقال انه من الذين لا يسمحون بان يمس الجيش باية كلمة ، ذلك الجيش الوطني الذي يفتخر بالانتساب اليه ...

فحنى الرئيس ومعاوناه رؤوسهم اجلالا !..

وتابع الاستاذ ليميرل « دفاعه » فقال : اجل ايها السادة ، اني ما انكر الخدمات الجلى التي يقوم بها رجال الشرطة في كل يوم لسكان باريس البواسل ، وما كنت لارضى بالدفاع عن كرنكبيل امام هيأتكم الموقرة لو عرفت فيه مهيناً جنديا قديماً ، ولكن موكلي بريء : فقد اتهم بانه قال : « تقبر البقر ! » ومعنى هذه الكلمة صريح لا يقبل التأويل. قلبوا صفحات « معجم اللهجات العامية» تجدوا هذا الشرح : « المتباقر هو الكسول الخامل الذي ينبطح متوانياً كالبقرة بدلا من ان يشتغل . ويطلق بعض الناس كلمة بقرة على النمام الذي يبيع نفسه من الشرطة ليأتيهم بالاخبار »، وهذا التعبير الاستعاري لا يعرفه الفرنسيون جميعهم وانما هو من اللهجة العامية الباقية في بعض المقاطعات. ولكن ما لنا ولهذا التفسير ، فالقضية كلها محصورة في ان نعرف كيف تفوه كرنكبيل بهذه العبارة ، وهل قالها حقاً ؟ اسمحوا لي يا سادتي ان ارتاب في ذلك ...

« اني لا اظن بالشرطي ذي الرقم ٦٤ اية نية سيئة، ولكني اعذره اذا ما هو اخطأ في الفهم ، فقد قلنا انه يؤدي مهمة صعبة شاقة ولا يستغرب ان يتعب والحالة هذه وينهك الاجهاد قواه كلها فيصير كالمعدم

احياناً ، ويجوز في مثل هـذه الظروف ان يتولاه نوع من الوهم في سمعه فيخيل اليه انه سمع كلمة ويكون في الواقع واهما لم يسمع شيئاً ، وعندما يشهد امامكم ايها القضاة الكرام بان شيخاً جليلا كحضرة الدكتور ماتيو الضابط في جوقة الشرف ، ورئيس مستشفى امبرواز ، واحد امراء العلم ورجالات بلادنا المنظور اليهم ، قد اهانه وصرخ في وجهه « تقبر البقر ! » نضطر عندئذ لان نعترف بان هذا الشرطي المسكين قد ركب الشيطان رأسه وصيره فريسة الاوهام والهذيان !

« ولنفرض مع ذلك ان المتهم قد صاح في وجه الشرطي « تقبر البقر » فهل تشكل هذه الكلمة من فمه جرماً ؟؟ ان هذا العجوز الفقير الماثل امامكم ايها السادة هو ابن غير شرعي لبائعة جوابة ماتت من ادمانها الخمر ومن جراء سيرتها المعوجة ، وقد جاءت بابنها الى هذا العالم مسموماً بالكحول ، وها انكم ترون اليه رازحاً تحت اثقال ستين سنة قضاها في البؤس والشقاء . ومن كان هذا حاله لا تلقى عليه تبعة عمله ، ولا ريب في ان قلبكم الكبير سيشمله بعطفه الكريم ! »

وكان كرنكبيل ينظر الى وكيله ، وهو يدافع عنه ، بعين الامتنان والتقدير ، وبالرغم من انه لم يفهم مضمون الدفاع فقد دخل في روعه ان المحكمة ستطلق سراحه ، وقد تأثر من ذكر والدته المسكينة وذكر انه نشأ يتيما فقيراً ، وعاش عاملا شريفاً يأكل خبزه بعرق جبينه ، فارسل تنهدة من اعماق قلبه واستسلم للاكتئاب ..

جلس الاستاذ ليميرل وقرأ الرئيس بصوت خرج من بين اسنانه حكما يقضي بسجن المتهم خمسة عشر يوماً وبتغريمه خمسين فرنكا جزاء نقدياً . وقد بنت المحكمة قناعة وجدانها على شهادة الشرطي!

فالتفت المحكوم الى المحامي مشدوهاً يسأله عن نتيجة الحكم ، ثم مر بباله انه سمع كلمة « خمسين فرنكا » فقال له :

ـــ ماذا قال حضرة الرئيس ؟ ايريد ان يدفع لي الشرطي خمسين فرنكا ؟

ـــ ولماذا تريد يا كرانكبيل ان يدفع الشرطي لنا هذا المبلغ ؟

ـــ تعويضاً عن بقولي وفاكهتي التي اخذوها من عربتي

ـــ لا يا صاح! بل نحن يجب علينا تأدية المبلغ للمحكمة

ـــ اذن لقد خسرنا الدعوى !

خسرناها شكلا ، ولكننا لم نخسر شرفنا ... وكرامتنا ...

ولما سيق كرنكبيل الى السجن شعر وهو يجتاز الاروقة الطويلة المظلمة انه بحاجة شديدة الى بعض الحنان والعطف ، فالتفت الى الحفير الذي يقوده وناداه فلم يجب ، فتنهد قائلا : « من كان يقول ، منذ اسبوعين فقط ، اني سابلى بما انا فيه !... »

ثم ابدى هذه الملاحظة: ان هؤلاء السادة (في المحكمة) يسرعون

في كلامهم ! صحيح انهم يجيدون الحكي ، ولكنهم يسرعون به كثيراً ... اني لا استطيع « التفاهم » معهم ... او لا ترى يا شرطي انهم يتكلمون بسرعة ؟

وظل الشرطي ماشياً ولم يجب ، بل لم يمل برأسه ، ولم يلتفت اليه فتألم كرنكبيل وقال له بشيء من العتاب :

ـ لماذا لا ترد ؟ ان الناس يكلمون حتى الكلاب ، فهل تحسبني اقل من كلب لا استحق الجواب ؟ ان الفم الذي يظل مطبقا ولا يدخل الهواء اليه يعفن !

ولكن الشرطي لم يفه بكلمة ، بل ظل ماشيا ساكتا

وجاراه العجوز في سكوته ، والصدى يردد وقع اقدامهما !...

لماذا حكم على كرنكبيل

اسدلت المحكمة الستار على دعوى كرنكبيل كما لفت قبلها مئات والوفاً غيرها ، وانتقلت الى قضية جديدة ، وخرج من القاعة بعض الفضوليين الذين سمعوا سرد الوقائع ولم يهتموا للحكم ، ولكن فنانا من سكان الاقاليم ، ساقته الاقدار الى قصر العدل وحضر المحاكمة ، استغرب ما سمع فيها وما رأى ، فالتفت الى رفيق له محام وقال :

— « لا ريب بان في عقل المثقفين تطلعاً لمعرفة كل شيء ، ولكن رئيس المحكمة لم يخضع لهذا التطلع . وقد احسن صنعاً بتجنبه التحقيق في كل ما سمع : ذلك لان شهادة الشرطي ذى الرقم ٦٤ وشهادة الطبيب ماتيو كانتا على طرفي نقيض ، ومتعارضتين على طول الخط ، فلو طابق احداهما على الثانية لتوغل في الشكوك وحار في اي سبيل يمشي ! ناهيك بان درس الحوادث على ضوء قواعد التدقيق والنقد يجر الى

التطويل والتأخير ، وفتح ابواب مغلقة ، مما لا يتفق وحسن الادارة في القضاء

» يروى عن المؤرخ العظيم ولتر رالغ (١) انه بينما كان ذات يوم قابعاً في برج لندرة يعمل على عادته في الجزء الثاني من كتابه « تاريخ العالم » سمع شجاراً تحت النافذة فقام وشهد اشخاصاً يتخانقون ، ولما رجع الى عمله كان يظن انه شهد بالضبط كل ما جرى

»واتفق ان صديقاً له كان منخرطاً بين المتشاجرين زاره في اليوم

---

(١) Walter Raleigh شاعر انكليزي فذ وسياسي محنك ، ولد سنة ١٥٥٢ وكان موضع ثقة الملكة اليصابات دانكلتر واقرب المقربين اليها . يعزى اليه انه صاحب فكرة التبسط الاستعماري الذي اشتهر به عهد صديقته الملكة المذكورة ، وكان يريد الاستيلاء على جميع الولايات الاميركية الخارجة عن نطاق الحكم الانكليزي ... قتله سنة ١٦١٨ الملك جاك الاول المشهور بتعصبه الديني وقسوته على مخالفيه ، «فخسرت» المملكة بمقتل رالغ دماغاً من اعظم الادمغة التي نظمت خطط الاستعمار الانكليزي

الثاني وحدثه عن ذلك الشجار فاذا به يسمع منه تفصيلا جديداً يناقض كل ما كان قد شهده بنفسه نقاضاً تاما ! فاستغرب المؤرخ هذا الامر واخذ يفكر في نفسه قائلا : « لقد اخطأت في معرفة حادثة وقعت تحت نظري ، فانى لي ان اثبت من صحة الحوادث التي وقعت في القدم ؟ ... »

« ثم قام واتر والغ الى مؤلفه ورمى به طعما للنار

« ولو كان للقضاة مثل هذا الوسواس لكانوا هم ايضاً يرمون بتحقيقهم طعما للنار ، ولكن لا يجوز لهم ان يأتوا هذا الامر المنكر لان اقترافه يعد جريمة ضد القضاء : فنظام المجتمع القائم يوجب عليهم ان يحكموا في الناس سواء اعرفوا حقيقة الدعوى ام جهلوها .. اي ان اهمال الحقيقة جائز ولكن اهمال الحكم لا يجوز . ومن يوجب على القضاة التقيد بدرس الوقائع وتفحصها تفحصاً محكما انما يكلفهم شططاً ويسيء الى حسن الادارة في القضاء !

« اما الرئيس الذي حكم على كرنكبيل فبدا لي على جانب عظيم من تفهم روح الشرع : فهو لا يبني حكمه على اسس العقل والعلم ، لان الحكم المبني على هذه الاسس يبقى هدفاً للاخذ والرد طول العمر ، وانما يبنيه على المعتقدات والتقاليد فتصبح احكامه ذات قوة كأنها احكام كنسية ... او لم تلحظ انه صدق شهادة الشرطي كأنها قبس من الله تعالى نزل الى المحكمة ، ولم يحترم شهادة الطبيب؟

انه فعل ذلك لان الشاهد الاول انسان يرمز الى قوة معنوية واما الشاهد الطبيب فانسان وكفى ! وعندما يتقدم الانسان لتأدية الشهادة ويكون مسلحاً بسيف او مسدس فالرئيس يصغي الى السيف او المسدس لا الى حاملها ، لان الانسان محتقر ومطبوع على الخطأ واما السيف او المسدس فلم يكن احدهما يوماً محتقراً وانما كانا على حق ، وعلى حق دائماً !

» المجتمع الانساني مرتكز على القوة فيجب ان تكون القوة محترمة كاساس للمجتمع المعظم ، وما القضاء الا ادارة القوة . ولما كان الرئيس يعلم ان الشرطي ذا الرقم ٦٤ هو جزء من الدولة ، والدولة كائنة في كل ضابط من ضباطها ، فانه لم يمس سلطة الشرطي لئلا يضعف قوة الدولة

» ان سيوف الحكومة يجب ان تكون جميعها في اتجاه واحد ، فشهر بعضها في وجه بعض يخرب الجمهورية ، ولهذا استند الرئيس الى شهادة الشرطي وحكم على كرنكبيل بخمسة عشر يوماً وخمسين فرنكا . ويخيل الي انه لو سئل عن الاسباب التي اوحت اليه بهذا الحكم لقال انها اسباب عادلة حكيمة واجاب :

» — اني لم احاكم هذا المتهم بمقتضى الجرم عينه المنسوب اليه ، وانما حاكمته بالنسبة لعلاقته بالشرطي ذي الرقم ٦٤ ، ولو لم اسلك هذا السبيل العاقل لكنت ابله ... ان الشرطي هو احد افراد القوة

العامة ، وافراد القوة العامة هم الذين ينفذون مقرراتي ، فاذا حكمت على هذه القوة فاحكامي تبقى بلا تنفيذ

» وبديهي ان الناس لا يطيعون القضاة الا بقدر القوة التي تكون بجانبهم وتظاهرهم ، والقضاة بلا درك وشرطة هم كالشعراء الذين يهيمون في كل واد ... فليس من مصلحتي اذن ان اخطىء دركياً او شرطياً لئلا اخسر قوته فاسيء الى نفسي ، ناهيك بان روح الشرائع التي اطبقها لا يأتلف مع هذه التخطئة

» ان تجريد الاقوياء من سلاحهم وتسليح الضعاف يقلبان النظام الاجتماعي رأساً على عقب ، ومهمتي محصورة في تأييد هـذا النظام وتوطيده

» يستنتج مما تقدم ان القضاء هو تثبيت للمظالم القائمة ، فنحن لم نره يوماً يخالف الغزاة الفاتحين ، ويناوىء الغاصبين الظالمين ، ويقف في وجه المستعمرين الطامعين فيقول لهم ان لا حق لهم في اغتصاب الارض من اصحابها والسيطرة عليهم وعليها ، وانما رأيناه يعترف بكل سلطان يقوم على عصيان غير مشروع فيصيره مشروعاً .

» ثم ان القضايا تؤخذ كلها بشكلها لا بروحها ، وليس بين الجريمة والبراءة الا نقطة صغيرة ارق من الورق . فقد كان على كرنكبيل ان يكون اقوى من الشرطي ، ولو انه — بعد ان صرخ في وجه خصمه « نقبر البقر ! » — نادى بنفسه امبراطوراً او طاغية (ديكتاطوراً) او

رئيس جمهورية، او عضواً بلديا على الاقل، لما جازيته بالحبس والتغريم ونقوا باني كنت قد كرمته كل التكريم ، وما ازعجت خاطره اقل ازعاج !... »

وبينما الفنان يبسط على رفيقه المحامي هذه الاراء التي خطرت بباله على اثر محاكمة كرنكبيل ، كان رفيقه ـ وقد الف ذهنية القضاة وفهم العوامل التي تسيرهم في احكامهم ـ يبتسم لملحوظاته ، فلما انتهى من تعليقه اجابه المحامي :

ـ اما انا فما اظن ان رئيس المحكمة قد تسامى بتفكيره الى مثل هذه الفلسفة العالية ، وانما اعتقد انه في قبوله شهادة الشرطي ، على انها الحقيقة ، سلك السبيل عينه الذي تعود ان يرى زملاءه يسلكونه في احكامهم ، فالتقليد هو الدافع الرئيسي في معظم الاعمال البشرية ، ومن يطبق تصرفه على المألوف والعادة يعد دائماً رجلا شريفاً . واصحاب السيرة الحميدة في عرف الناس هم اولئك الذين ينهجون على غرار سواهم !..

خضوع كرنكبيل لشرائع الجمهورية

ارجع كرنكبيل الى السجن وجلس على الدكة المربوطة الى الحائط بالسلاسل ، مثقلا بالذهول والعجب ، وهو غير متأكد ان قضاته قد ضلوا في محاكمته سواء السبيل ، ناهيك بان المحكمة سترت اخطاءها بثوب مرصع بجلال الازياء ، فما كان ليستطيع الاعتقاد بانه محق على قضاة لم يفهم الاسباب التي دفعت بهم الى سجنه وتغريمه ..

وقد استحال عليه ان يلاحظ ان الانغام لم تكن منسجمة الايقاع في تلك الحفلة الجميلة ، وان النشوز كانت تتخللها ، ومع ذلك فقد رأى في القاعة ـ مجلس الحكم ـ وفي سير الدعوى ، ومظهر القضاة والمحامين بارديتهم السوداء المستطيلة وقبعاتهم الملونة المتعالية ، ومظهر الحجاب بالبستهم الرسمية والسلاسل المذهبة المتدلية على صدورهم ـ رأى حفلة رائعة لم يشهد مثلها في حياته . وكيف لا يراها رائعة وهو لم

يذهب يوماً الى الكنيسة ويسمع القداس ، ولم يتح له ان يحضر حفلات رئيس الجمهورية في قصر الاليزه ؟

صحيح انه كان واثقاً في اعمال نفسه انه لم يصرخ في وجه الشرطي « تقبر البقر ! » غير ان الحكم عليه بخمسة عشر يوماً سجناً لانه اتهم بانه صرخ تلك الكلمة لاح له في خاطره كسر علوي ، سر من تلك الاسرار التي يمارسها المؤمنون ويتعلقون باهدابها دون ان يفهموها او يعرفوا شيئاً منها : اي انه كوحي مظلم ومشع ، وعذب ورهيب

رأى ذلك الشيخ الفقير نفسه مذنباً لانه اساء ، بشكل سري ، الى الشرطي ذي الرقم ٦٤ ، مثله كمثل التلميذ الصغير يوم يلقن التعليم المسيحي ويسمع بالخطيئة الاصلية فيرى نفسه واقعاً فيها... لقد اخطأت حواء فنكبت ذريتها بخطيئتها وتحملت تبعتها ! وهوذا كرنكبيل يبلغ انه صرخ « تقبر البقر ! » ، فيخيل اليه انه صرخ : « تقبر البقر ! » بشكل سري يجهله هو نفسه ! فما هذه الاجاجي والاسرار التي تحيط به ؟ لقد حار في امره وانتقل الى عالم آخر فوق هذا العالم

واذ لم يفهم حقيقة جرمه فهماً جلياً فطبيعي ان يجهل حقيقة ما عوقب به ولا يفهمه فهماً واضحاً : ولهذا تراءى له ان حكمه انما هو امر فخم ، مقدس ، سماوي ، امر يبهر الابصار والبصائر فلا يتفهمه البشر ولا يجادل فيه ، وعلى « المذنب » ان يتقبله بلا حمد ولا تذمر .

ولو تمثل له رئيس المحكمة في تلك الساعة بجناحين ابيضين ، وعلى رأسه اكليل الغار ، هابطاً عليه من سقف السجن لما ذهل لهذه الظاهرة الجديدة من ظواهر عظمة القضاء ، ولقال في نفسه : « ان هذا الشيء الغريب الذي اراه الان ان هو الا حلقة جديدة في قضيتي المستغربة المتتابعة ! »

ونام كرنكبيل ليلته تساوره هذه الافكار والرؤى

وفي اليوم الثاني جاء « وكيله » الاستاذ ليميرل يزوره ، وسأله :

— هل انت في حالة سيئة جداً ايها الصديق ؟ صبراً يا عم صبراً ، فالاسبوعان يمضيان بسرعة وليس لنا ان نتذمر كثيراً

فاجاب الشيخ المحكوم :

— لا ... من هذه الناحية لا اشكو ، بل اقول ان هؤلاء السادة (القضاة) كانوا كثيري اللطف والتهذيب ، ولم يسمعوني كلمة واحدة كبيرة ... ما كنت لاظن ذلك . ثم ان الشرطي قد البس يديه كفين بيضاوين ، ألم تره ؟

— لقد رأيت كل شيء وانتبهت الى كل شيء . ولقد احسنا صنعاً باقرارنا

فحنى الشيخ رأسه واجاب : يجوز

— اسمع يا كرنكبيل ، اني احمل اليك خبراً يسرك : لقد ذهبت

الى محسن كريم وعرضت له قضيتك طالباً مساعدته فنقدني خمسين فرنكا سادفعها بدل الجزاء النقدي الذي غرمت به

ـــ ومتى تعطيني الخمسين فرنكا ؟

ـــ سادفعها عنك للمحكمة ، فاطمئن

ـــ لا بأس ... اني ، على كل ، اشكر المحسن

واطرق كرنكبيل مفكراً وهمس قائلا :

ـــ ليس الذي حل بي امراً عاديا

ـــ لا تستعظم شيئاً يا كرنكبيل فقضيتك ليست بالنادرة . لا ، بل بالعكس فالذين يحكم عليهم مثلك كثير

ـــ الا تقدر ان تقول لي اين دسوا عربتي ، وماذا صار بيقولي واثماري ؟

كرنكبيل فى السجن

مضت الايام الاولى على الشيخ في حبسه سوداء كالحة ، يشعر بانقباض لا يستطيع تفسيره

لقد ضاقت عليه هذه الغرفة النظيفة الفارغة مع انها اكبر من غرفته الرطبة المظلمة القذرة ، التي عاش فيها نصف قرن على ضفة النهر ، ولكن تلك انما هي غرفته ! ... ياسبحان الله ! الفها طوال هذه السنين الحلوة التي مرت عليه ، وكان فيها طليقاً !.. حراً !.. يخرج منها ويرجع اليها ساعة يشاء ، ويستقبل فيها من يشاء ساعة يشاء ، وتشعره انها مقر راحته وركونه ، فيحن لها ويطمئن اليها . اما هذه ، فليست له ! .. وهي على كبرها ونظافتها وبياض جدرانها تشعره بانها مقر القوة والعظمة والجبروت المبهم : مقر القضاء

وعبثاً حاول ان يستدرج سجانه لمحادثته فلم يفلح

وما كان السجان صلفاً ولا قاسياً وانما ظن ان في « ضيفه »مساً، فالاسلوب الذي خاطبه به كرنكبيل للمرة الاولى لا يدل على منطق سليم ولا على ان لصاحبه عقلا سويا

وفي اليوم الرابع كانت نفسه قد اختمرت بالانقباض والكآبة ولكنه بدأ نظره يألف ما هو فيه ، فاستوقف سجانه وقال له بلطف وانكسار :

ـــ سألتك امس ياسيدي عن جاكو فلم تجبني

ـــ ليس عندنا موظف اسمه جاكو

ـــ جاكو... جاكو الصغير !.. الم يأت ويسأل عني ؟

وظن السجان ان الشيخ المحبوس ، الذي بدأ يخاطبه باستذلال، يسأله عن ابن او حفيد فرق له قلبه ، واجاب :

ـــ لا يسمح للاهل بزيارة ذويهم المسجونين الا يوم الاحد ، ونحن اليوم في الثلاثاء

ـــ واذا كان المحبوس لا اهل له؟

ـــ لا يزوره احد ، المسألة هينة جداً ...

فاطرق الشيخ ، وقد شعر ان هذا الجواب اغص عليه الدنيا ،

وردد في نفسه : لا يزوره احد !

وجاء يوم الاحد، يوم الاستقبال، وانتظر ان يدعى لمقابلة زائر ما كما دعي زملاؤه المسجونون لمقابلة ذويهم ، ولكن انساناً لم يطلبه

ومن يطلبه ، وهو لا اهل له ؟

واخيراً .. وبعد الانتظار الطويل طيلة النهار خاب امله ففتتت الوحشة احشاءه

هوذا يحس انه وحيد في هذه الدنيا ، فيغضب ويكره البشر. وقد كان في مطلع شبابه يحس هذه الوحدة ولكنه لم يكن ليغضب اذ ان مدينة باريس الكبيرة، باريس الجبارة الخالدة، كانت تتسع لتسليته وتعزيته في كآبته

ثم انه يحس الان ، فوق الوحدة في هذا الحبس المسدود على وجهه، انه مظلوم: في صدره صوت عميق يوشوشه انه رغم المظاهر التي رافقت قضيته في التحقيق والمحاكمة لم يهن الشرطي ، وانه بريء لا يستحق هذا التضييق والاهانات

ثم ان آلاما نفسية جديدة تبرح به : هوذا صديقه الصغير جاكو يتناساه !

تتابعت هذه العوامل في الانقضاض على كرنكبيل فوهنت منه قواه ، وجلس على الدكة واستسلم للبكاء

حملوا اليه الطعام فلم يأكل...

ولحظ احد المسجونين ان هذا « الزميل » الجديد قد خار امام الهموم والاحزان ولم يقو على احتمال مرارة الحبس ، فحاول ان يشجعه ويعزيه :

— لا شك ان العم مظلوم

فالتفت اليه كرنكبيل، وقد فتح عينيه بقوة ، ثم اطرق وارسل تنهدة من اعماق قلبه ، واجاب بصوت خافت :

— ثق اني لم اقل « تقبر البقر ! »

— ؟ ... ؟ ...

— أ أنت ايضاً لا تصدق ؟

— اني اصدق يا عم ولكني لم افهم قولك

— عجيب امر الناس ، فهم جميعهم لا يفهمون !

ثم القى ببصره الى الارض وخفض صوته قائلا :

— ولكن ، من يدري ؟ فقد اكون انا العاجز عن افهام الناس ما بي !

وفيما هما يتبادلان قصتيهما دنا منهما سجين ثالث — حوكم في اليوم الذي حوكم فيه كرنكبيل واتيح له ان يشهد محاكمة البائع — فاشترك

في حديثهما وابدى رأيه في ان الشيخ قد اخطأ في اقتباله الحكم الجائر وكان عليه ان يستأنفه

فلم يوافق الثاني على هذا الرأي واجاب :

— من يقول لك ان القضاة في المحكمة الثانية لا يثبتون الحكم البدائي ؟ بل من قال لك انهم لا يفعلون به ما فعلوه بالعامل مارتو فيزيدون في عقابه عبرة للاخرين كي لا يجرؤوا على ازعاجهم في استئناف دعاويهم الى مجلسهم العالي

وتبسط السجينان في المناقشة ، وكرنكبيل مصغ اليهما لايدري ما يقول ، فلما اتي على ذكر العامل مارتو اهتم لمعرفة ما فعلت به المحكمة فسأل :

— هل قال « تقبر القر ! »

— لا... ويا ليته قال هذه الكلمة ! ان مارتو عامل في مطابع « ناشت » والعمال في هذه المطبعة يشتغلون عشر ساعات كاملة واجورهم زهيدة جداً لا تكاد تكفيهم لقضاء حاجاتهم الضرورية . انهم مظلومون مثل جميع العمال والمستخدمين ، يأكل اصحاب العمل ثمر اتعابهم ، ويستحلون عرق جباههم ، لقد بدأ مسيو « ناشت » حياته وهو يملك آلة واحدة صغيرة للطباعة وعنده ثلاثة عمال فقط ، واصبح اليوم يملك اعظم مطابع فرنسا وعنده عشرة آلاف عامل ...

— انه شاطر ، وقد احسن ادارة عمله !

— انه شاطر ! .. نعم انه شاطر ! ... ولكن لماذا لا يصبح جميع الشطار اغنياء مثله ، وفي فرنسا الوف يفهمون اكثر منه ، ويحسنون ادارة العمل اكثر منه ، ويسهرون على مصالحهم اكثر منه

— ماذا تريد ان تقول ؟

— اقول ان هذه الثروة التي جمعها مسيو « ناشت » هي ثمرة جهود العمال : فالمطبعة وحدها ، والشطارة وحدها ، وحسن الادارة وحدها ، لا تأتي بالمال ولا تجمع الثروات وتبني القصور المتشامخة ، وانما عمل العمال هو الذي يخلق الانتاج ، وانتاجهم هذا — من عرق جبينهم — هو الذي يباع ، وثمنه هو الذي يغني صاحب العمل . واما العمال الذين كونوا الانتاج وسببوا ثروة صاحب المعمل فيبقون فقراء ، يتضورون جوعاً ، وابناؤهم ونساؤهم واباؤهم يعيشون في البؤس والشقاء ، ناهيك بانهم مهددون كل ساعة بالطرد ! ... يستغنى عنهم ويخرجون من عملهم كالكلاب ، استغفر الله ! ان الكلاب لا يطردها اصحابها بل يعطفون عليها ، واما العمال والمستخدمون فهم اقل من الكلاب قدراً .. الا ترى ان للحيوانات جمعية للرفق بها ؟ واما العمال والمستخدمون فكل قوة في هذا العالم الفاسد تظلمهم ، حتى القوانين !.. نعم ، حتى القوانين تظلمهم !... اقول ان الثروة التي جمعها مسيو « ناشت » هي ثمن انتاج عماله ومستخدميه ، فهو اذن لص يسرق الناس

علناً ، ولا يكتفي بسرقة الناس وانما يسرق الضعاف والفقراء منهم فيمزج اللصوصية بدناءة النفس الغدارة ، ومع ذلك فالقوانين تحميه ، وتؤيد ظلمه ، وتوطد سيطرته على عماله ، وكل من يجرؤ منهم ان يطالب حقاً منه تحكم عليه هذه القوانين باقسى العقوبات

قال كرنكبيل : — ولكنك لم تقل لي ماذا فعل العامل مارتو حتى حكموا عليه

— مارتو مثقف ويحمل شهادة عالية ، وقد اضطر لان يشتغل في مطابع ناشت ليعول والديه العجوزين وشقيقته المريضة ، وربما يجد عملا في مكان آخر ، وبالرغم من انه مثال الجد والنشاط والسيرة الحميدة بين اقرانه في المطبعة ، وعمله متقن كل الاتقان ، فمسيو « ناشت » لا يحبه ! .. ان مسيو ناشت ، على ضخامة ثروته وسعة عيشه محسود منه ! .. في اعماق قلبه كراهة له لان مارتو الفقير مثقف ، وهو الغني الخطير بثروته ، والذي يتحكم بمصير عشرة الاف عامل مع عيالهم ، يكاد يكون جاهلا ، ويشعر بتفوق مستخدمه عليه ، وبعجز الذهب المكدس في صناديقه عن اعلائه معنوياً (نفسياً) عما هو فيه ، فيضمر الحقد للعامل الامين البريء ! ...

» مرض يوماً والد مارتو فجاء الابن يستأذنه بالانصراف قبل الاوان ليهتم بابيه ، فلم يسمح له الا بعد لأي وجدل . وفي اليوم الثالث توفي المريض واضطر مارتو لان ينقطع عن عمله ليدفن والده ،

فغضب عليه مسيو ناشت وحسم من مرتبه اجره عن اليوم الذي غاب فيه ! اعترض العامل على هذا التصرف غير الانساني فاستاء السيد من اعتراضه وهدده بالطرد ! مارتو عامل شريف يقوم بواجبه حق القيام ويحترم نفسه كل الاحترام ، فوقف في وجه يفهمه ، بكل تهذيب ، انه لا يسمح لاحد في هذا العالم ان ينال منه ، فهاج هائج مسيو ناشت وقال لمارتو :

» — اترد في وجهي وانت عامل في مطابعي ، مدين لي بكسب عيشك ؟ انك عاق ! ...

» — اني انتج لك يا سيدي اكثر مما اتقاضى منك ولم امتن عليك او اقل لك انك مدين لي بكسب عيشك . كلانا ينتفع من الاخر ، ولكنك تنتفع مني مستغلا عرق جبيني وثمرة اتعابي واتعاب اخواني العمال المساكين ، واما نحن فنلقى منك « انتفاعاً » موقتاً لا يكاد اجزله يكفينا لنسد به رمقنا مع عيالنا ، ثم نبقي لك ثمر انتاجنا كله . فالعقوق اذن ليس منا ...

» — اتجرؤ على التطاول ، وتنسب الي العقوق يا قليل التهذيب ؟..

» — انك خبرتني مدة طويلة ورأيتني كثير التهذيب يا سيدي ، ومن يهينني فهو هو قليل التهذيب !

» وازداد هياج مسيو ناشت وهجم على مارتو ليصفعه فرده هذا بشمم ، وتجمع العمال حولهما ، وهم بعضهم بان يضرب مارتو تزلفاً لسيدهم فدافع الاخرون عن رفيقهم وانشطر العمال الى شطرين : احدهما يزدلف الى صاحب المطابع والثاني يظاهر العامل في رد الاهانة عنه

» وهال مارتو ان يشتبك العمال بسببه في شجار دام ، وهم جميعهم اخوانه ورفاقه ، وتألم ان يكون بينهم من لا تزال نفسه مستعبدة الى هذا الدرك من الجهل والذل ، فطلب من زملائه الذين انتصروا له ان لا يمسوا اخوانهم باي سوء لانهم سذج ، بؤساء ، يجهلون ما يعملون

» ولكن وكيلا من المتقربين من مسيو ناشت اندفع بهين مارتو ويتحدى اصدقاءه ، فقال له العامل الشريف :

» — اني اعلم انك تحاول اثارة الشر لتظهر «اخلاصك» لمولاك ، اي انك تريد توطيد مركزك على جماجم زملائك ، ولكني لا اجاريك في هذا الميدان لان قيام فريق من اخواننا على فريق آخر يضعفهم جميعاً ، وتبعة خناقهم تقع عليهم وعلى عيالهم البريئة ... اني لم اسىء الى مسيو ناشت ، وحكايتي معه اني اضطررت منذ ثلاثة ايام للانصراف من شغلي قبل الموعد بقليل لان والدي العجوز وقع مريضاً وكان بحاجة لطبيب ، وفي اليوم الثاني جئت الى المطبعة تاركا والدي تخالجه

سكرات الموت . وامس توفي المسكين فغبت لدفنه ولما رجعت الان الى شغلي جاء « السيد ! .. » يوبخني ناوياً ان يحسم اجر اليوم الذي غبت فيه !! .. لقد اعترضت على تصرفه وناقشته بالحسنى فاذا به يهينني ، ثم يحاول ضربي ! ... اعلموا ايها الرفاق ان هذه الحادثة لا تعنيني وحدي وانما هي تهمكم جميعكم : فما من عامل يضمن انه لن يضطر للغياب عن شغله بسبب مثل سبب غيابي ، فهل ترضون بان تعاملوا هذه المعاملة الشاذة المؤلمة التي يريد مسيو ناشت ان يستنها لنا ؟... اني اغفر للرفيق الذي اهانني ، ولا اقابله بالمثل ، فان انقسامنا ينفع صاحب المطبعة ، واني اضن بنقطة من دمائكم الطاهرة تسفك لاسباب عقيمة ... ارجعوا ، بعضكم عن بعض ، فنحن جميعنا اخوة نرزح تحت النير الواحد ، وتصافحوا تقووا ، ويعجز « السيد ! ... » عندئذ عن التحكم برقابكم باستمرار ، ثم يرغم على احترام حقوقكم ! ..

» وكان لهذه الكلمات الصريحة ، الصادقة ، المعقولة ، وقع شديد في نفوس سامعيها ، فانضم معظم العمال الى قائلها ، وسادت الجلبة ، وهددت الحالة بالخطب ، فخشي مسيو ناشت سوء المصير وتراءى له ان عماله قد رفعوا العلم الاسود ، وانهم احتلوا المطابع ، فاستعان بالشرطة ، ولسرعان ما امتثل « رجال الامن ! » لاوامره وقادوا مارتو وبعض رفاقه الى السجن ...

« حكم على مارتو بالحبس شهراً لانه اهـان سيده وحاول ضربه (مع انه كان في حالة الدفاع المشروع عن النفس) فاستأنف الحكم فزادت المحكمة العليا عقابه الى ثلاثة اشهر بتهمة « تحريض العمال على التمرد والثورة ، ونشر المبادىء الهدامة ... » اما رفاقه فحكم على كل منهم بالسجن خمسة ايام ، وما ذنبهم الا انهم منعوا بعض اخوانهم من العمال المستعبدين ان يعتدوا على رفيق لهم مظلوم !... »

• • •

انتهت قصة العامل مارتو وسكت المسجونون الثلاثة ...

صحيح انها تثير النفوس الحرة والقلوب الكريمة ، ولكن كرنكبيل وجد فيها بعض العزاء له على نكبته ، وبعد قليل سأل محدثه :

ـــ واين هو مارتو الان ؟

ـــ انظر الى الزاوية الشرقية ، هناك ، قرب البـاب ، هو ذاك الشاب البراق العينين ، ذو السمرة الجذابة والمبسم العذب ، الله تعالى وحده يعلم كم في قلبه من احزان ودموع ! هو في الحبس لمـدة ثلاثة اشهر وامه وشقيقته اللتان يعولهما لا رغيف عندهما تسدان به الرمق

وبعد صمت قليل :

ـــ لا ، لا يا عم ... لست وحدك بالمظلوم ، فهذا المكان الذي نحن

فيه اوجده الشراع لتهذيب الناس، غير انه بني على الظلم والخطأ والاهمال والانتقام، وواحد من عشرة من سكانه يستحق الاقامة فيه، ولو كان العدل قائماً في المجتمع لجيء اليه بالاقوياء جميعاً ... فالحبس وجد لهم لانهم يظلمون، لا للضعاف المظلومين ...

كرنكبيل امام الاقوياء

مر الاسبوعان على الناس مر الدقيقتين ، وطالا على كرنكبيل كأنهما سنتان، وفي اليوم الخامس عشر جاءه سجانه يبشره بان حريته قد ردت له ، فلم يلعن ولم يبارك !

لكنه لما تنشق الهواء الطلق ووجد ذاته ماشياً في السوق كما تمشي الناس بلا رقيب استعاد قبساً من امل الحيـاة ، وقدرت نفسه قيمة الحرية فلم يصدق انه طليق، فاخذ يلتفت وراءه ليرى ما اذا كان السجان يلحق به ، ثم طفق يدخل في سوق ويخرج منه الى اخر ليثق من انه حر لا يعترضه احد !...

واخيراً ، وقف وتنفس الصعداء : لقد انس بهذه الضجة القائمة في الاسواق ، وشجعته حركات الناس فشعر بقوة جـديدة تدب في جسده .

والان ، ماذا يعمل ؟

اول ما خطر بباله ان يسترجع عربته ، فاسرع الى المخفر واذا هو امام الشرطي ذي الرقم ٦٤ وجهاً لوجه !

احمر حامي القانون اذ وقع نظره على البائع الخارج من السجن ، وامتقع كرنكبيل اذ اصطدم بالرجل الذي سبب له الشقاء ظلماً. ووقف احدهما مطرقا امام الاخر لا يبدي ولا يعيد

ورافق خجل الشرطي شعور بالندم : تنبه في رجل القوة المسلحة ضمير الانسان فقال في نفسه : « ما كان هذا المسكين يستحق هذا الجزاء كله ، لو اكتفى المفوض بوقفه ليلة واحدة في المخفر لانقضى الامر بسلام ... اقسم بالله العظيم اني ما قصدت الانتقام منه ، ولا رغبت في اذيته او ضره ، ولا ظننت ان مخالفة تافهة مثل مخالفته ستؤدي الى مشاكل وقضايا ... الى ايلام ، وتعذيب ، وخراب بيوت !.. لا شك في ان الرؤساء يعظمون الامور بلا لزوم ... ولو ان المحكمة تقسو على المجرمين الممتهنين الاجرام مثلما قست على كرنكبيل لسهلت على الشرطة مهمتهم واراحت العباد ... »

والتفت الى البائع فوجده ما يزال مطرقا والكآبة بادية عليه ، فقال له بلطف :

— عربتك في المستودع ... تعال لاسلمك اياها !

• • •

رجع كرنكبيل الى سابق عادته، يدور بعربته في سوق مونمارتر منادياً على الفجل والملفوف والجزر ، غير خجل مما جرى له ، يخيل اليه ان حادثته ان هي الا حلم رآه في نومه ، او عود من سفر طويل ، صحيح انه لم يتعب في هذين الاسبوعين اللذين قضاهما في الاحتباس ، ولكن منظر الناس ، والتمتع بالحرية ، وجريه في الاسواق طليقاً انما هو شيء ثمين !

لقد امتلأ قلبه ضحكا للحياة ! هذه شمس الخريف تنفخ الحرارة في جسده ! هذه سماء بلاده تتلبد فجأة بالغيوم القاتمة ، الغيوم القدرة كمياه الساقية : سماء مدينته الجميلة ترذ على اذنيه وشاربيه وانفه.. وهذه رائحة التراب المبتل تتصاعد من الارض، والوحول تقبل قدميه فيمشي عليها بحذو وارتياح ... هوذا سوق البقول والجلبة التي تملأ جنباته متصاعدة الى السماء ، والاصوات المنوعة ، كالهدير والنعيق والجلجلة والتغريد ! الاصوات التي الفها نصف قرن كامل !... هذه حياته كلها تبعث امامه ، حياته القريرة ، الهادئة ، المطمئنة !... ان في الدنيا اذن غير الشقاء ، وفيها غير الالم والاكتئاب بين جدران اربعة ، وفيها وجوه تضحك ، ولا تقطب كوجه السجان

« قليل من الخمر يفرح قلب الانسان » ... فلنشرب !

وبدأ يشرب ، كاساً هنا وكاساً هناك ، ليبرد غلته

ووصل الى بيت جاكو الصغير وهو يكاد يكون ثملا فوجد الجدة

مريضة وعندها بعض جاراتها . ولم ير صديقه

— اين جاكو يا سيدتي ؟

وما ان سمعت النسوة صوته حتى تصاعدت الاصوات : «هذا العم بيل !.. هذا كرانكبيل !... »

وتهامس بعضهن : « لقد خرج من السجن ... انظري اليه فهو غير خجل !.. لم يضعف كثيراً !..»

كان استقباله ممزوجا بشعور العطف والنفور ، فجدة جاكو و «زبونته» الوفية السيدة تالان رحبتا به ، مشفقتين عليه ، مع اعتقادهما بانه مذنب . والنساء الاخر نظرن اليه باشمئزاز على انه مجرم يخالف القوانين ويزعج الحكومة ، اي انهن نظرن اليه نظرة الناس باجمعهم الى كل محبوس : السجين مذنب ابداً في نظر البشر !

وصل جاكو وفوجيء بمرأى البائع فارتعش ... وقف قليلا ثم تباعد عنه خائفاً : اصبعه في فمه ويده في جيب فستانه ، لا يدري ما يفعل . قلبه يحنو الى صديقه الشيخ الكريم الذي كان يطعمه التين والعنب والليمون ، واذناه تدوي فيهما اقوال السوء ، فمعظم نساء الحي حملن على صديقه واغتبنه ! جدته نفسها لم تجرأ على الدفاع عنه! الويل لمن يقع تحت السنة الناس !!! اذن ، فالعم بيل مجرم ، ومن كان مجرما لا يقربه احد

لكن حيرة جاكو لم تطل ، فالصوت العذب الذي غنجهُ مراراً يناديه الان بالعذوبة عينها، وبحنان اشد واكثر :

— جاكو !.. يا صديقي الكبير ، مالك لا تدنو مني !.. اني ما ازال العم بيل، فلماذا تخافني ؟ ثق ايها العزيز اني لم اقل «تقبر البقر» .. لم اتفوه بكلام قذر ... في حياتي كلها لم اهن انسانا ... حتى ولا كلباً .

وكان صوته يرتجف من التأثر والالم ، فلما ذكر ذاك الظلم الذي حاق به ، وهو البريء الذي لم يسيء الى مخلوق، بل البريء الذي احب الناس كلهم ، انحدرت الدموع من عينيه فخنقت صوته

قالت الجدة برفق :

— جاكو !.. لماذا لا تكلم العم بيل ؟

ومشى الصغير وجلا مضطربا ثم وثب اليه . وانحنى البائع يضمه الى قلبه ، فانف الصغير رأسه بيديه الصغيرتين واخذا يتبادلان القبل .

— جاكو !... يا صديقي العزيز !... يا صديقي الغالي !... أأنت ايضاً يا جاكو ؟... أأنت تظن بي سوءاً ؟... لقد اشتقت اليك ... اشتقت اليك كثيراً ... ما فكرت في سجني بسواك : انتظرتك طويلا ، منيت نفسي بزيارة منك وقلت لها : لا بد لصديقي

جاكو من تعزيتي في هذه النكبة التي حلت علي فقد كنت اعوده كل يوم مرتين في مرضه ، ولا شك بانه سيبادلني هذه الزيارة

ـــ انت كنت في الحبس .. لماذا فعلت هكذا ؟

ـــ انا ؟.. وماذا فعلت ؟

فتدخلت السيدة تالان واجابت :

ـــ مخالفة العم بيل لا تستحق هذا القصاص كله يا جاكو ولكن المحكمة قست عليه كثيراً

ـــ لماذا قست المحكمة على العم بيل ؟

ـــ لانه ضعيف ... لا سند له ... ليس من يدافع عنه ويهتم لامره ... لو انه ينتسب الى هذا المدير والوزير ، او ذاك النائب والغني ، او ذلك الزعيم والرئيس الديني لبرأت ساحته ، او انها ما حكمت عليه باكثر من فرنك واحد !

وكان حديث السيدة يخرق عقله كالالهام ، ويريه اشياء جديدة يحسها ولكنه لا يستطيع تفسيرها ولا يتفهمها ، فقال :

ـــ انت ايضاً مثلهم يا سيدة تالان ، تحسنين الحكي . ولكن حكيك يدخل القلوب . هم (القضاة والمحامون) ينطقون بفصاحة ، ويسرعون ، غير ان كلامهم مخيف ، صلب كالخشب .. اما انت فكلامك لين يشرح الصدر ! الحق معك : انا امي لا احسن الكلام

معك، وضعيف فلم يهتم بي احد ، حتى المحامي الذي عينوه للدفاع عني لم يصدقني ، بل صار يمدح الشرطي الذي افترى علي !

فقالت السيدة تالان :

ـــ لست وحدك اميا ضعيفاً لا يهتم احد بك يا عم بيل ، ولكن كل انسان لا يهتم بنفسه ، ثم بقريبه وجاره ، ثم بمواطنه ، يكون ضعيفا .. نحن جميعنا ضعاف لاننا متفرقون ، متنابذون .. والمجتمع سيظل على هذا الظلم ما دام في قبضة من الاغنياء وحلفائهم الاساقفة يسيطرون عليه !..

ـــ ما دخل الاساقفة هنا ؟..

ـــ الاساقفة والاغنياء والحكومة كتلة متراصة لا تتجزأ ، ولا تريد ان يتعلم الناس لئلا يقووا ..

ـــ جارتي السيدة دوبوا تحب الاساقفة وتجلهم ، وتقول عنهم انهم سياج الفضيلة والمحبة

فضحكت السيدة تالان ضحكة التهكم الممزوج بالشفقة وقالت :

ـــ زه ، زه ! انهم سياج الفضيلة والمحبة عندما يسعون لمصلحتهم يا عم بيل، ولكنهم في الواقع لا يحبون الناس الا ليكون الناس عبيداً لهم .. ان مصالحهم الشخصية لا تتفق مع تعليم البشر لان التعليم ينير العقول ، ومتى تتعلم نصبح نفهم فنبطل خضوعنا الاعمى لهم ، ونبدأ

نناقشهم في كل عمل يعملونه باسمنا ، ونحاسبهم على كل فلس يدخل عليهم من الاوقاف ، بل نمنعهم من التدخل في شؤوننا ونوقفهم عند حد معين .. ان رؤساء الدين اذن هم كالاغنياء في هذا الميدان : من مصلحتهم ان تظل الامية معشبة في رؤوس البشر ولا يوافقهم ان يكون للجماهير وعي .. اسمع يا عم بيل ، سأقول لك كلمة يجب ان تحفظها وتذكرها دائماً :

القوي ـ اي كل صاحب سلطان مادي او روحي ـ يريد من طبيعته ان يكون الناس ضعافاً ليظل وحده مسيطراً !...

وما دام المجتمع مسوقا بالنظام القائم فيه فليس من رابطة دينية ، او جنسية ، او قومية ، او وطنية ، تربط بين البشر وانما الرابطة الطبقية هي وحدها التي تظل حاكمة سعيدة

وكان البائع يتبع كلام « زبونته » بكثير من الاهتمام والارتياح وبشيء من الذهول فقال لها :

— انا احب حديثك كثيراً يا سيدة تالان ، ولكني لا افهم ما تقولين احيانا ، فعندك تعابير قوية لم اسمعها من احد قبلك ، وعقلي الصغير لا يقدر على هضمها ، الا انها تهزني واحس انها مني ..

— كلامي منطقي يا عم «بيل» وكل انسان يفكر بحرية مثلي يقول قولي : خذ مثلا رؤساء الدين من اي مذهب شئت وراقب اعمالهم كلها تجد انها محصورة في تفرقة عباد الله بعضهم عن بعض . كل رئيس يزعم ان مذهبه هو وحده الحق الذي يقود الى الجنة وان مذهب الاخرين هو مذهب الضلال .. وما دام الناس يسمعون هذه النغمة المنكرة يوميا فانهم صائرون الى التباعد والتنابذ المتحتمين

« ومن المستغرب المدهش ان يهمل رؤساء الاديان واجبهم الجوهري في الدعوة الى المحبة والبر والتقوى ، ويحفروا هذه الهوات بين الناس آثمين مجرمين ، ثم يوجبوا عليهم ان يحترموهم ويكرموهم ويسمعوا اقوالهم !.. والانكى من هذا ان الحكومة تكرمهم وتغدق عليهم النعم والامتيازات !..

« اسمع يا عم «بيل» : الشعب يئن من فداحة الضرائب والحكومة ترهقه برسوم مستجدة ورؤساء الاديان لاهون بتفضيل مذهب على مذهب ، وتخصيص السماء بفئة دون اخرى وتوزيعها على قوم دون

سواهم ، اي بالتفريق وخلق الكراهية بين ابناء الامة الواحدة ، والشركات ماضية في استثمارها واحتكارها وجشعها وليس من يقول لها كلمة واحد !..

« هذه شركة احتكار التبغ (الريجي) ، وهذه شركات الجر (القطار والترامواي) وهذه شركات التنوير والماء والمرفأ ، وهذه شركات المال (المصارف الضخمة) تربح الالوف المؤلفة في كل شهر وتضاعف رأسمالها من قرش الفقير مرة كل عشر سنوات ، ولا تدفع اية ضريبة للحكومة ، فاي رئيس دين وقف يحاسبها ويفضح مخازيها ويفهم الشعب كيف هي تبتز امواله ؟.. اي رئيس دين طلب ان تؤدي هذه الشركات الجشعاء قسطاً من ارباحها الطائلة لخزانة الدولة ؟ لقد قلت لك ان رؤساء الاديان لا يتبعون هذا السبيل لانهم حلفاء الاغنياء ومن مصلحتهم ان يظل الناس في جهلهم !

ـــ انا لا افهم مثلك يا سيدة تالان ، فلا اناقشك ولا اعترض على صحة ما تقولين ، ولكني اجد ان الحكومة مسؤولة عن مثل هذا الجور .

ـــ الحكومة ؟.. ها ، ها !.. الحكومة هي وليدة الرؤساء والاغنياء ، وكما ان هؤلاء يؤيدونها في الحكم فانها بدورها تبادلهم التأييد ...

« يقتل مظلوم شخصاً اعتدى على عرضه او خرب بيته ، او انزل

به ضرراً عظيما ، فتحكم عليه المحاكم باشد العقوبات ، ويقتل رؤساء الاديان الامة كلها بجماهيرها اذ يفرقون في وحدتها ويحفرون الهوات بين طوائفها ، فتكرمهم الحكومة وتنعم عليهم بالاوسمة وشارات الشرف !..

« يسرق فقير جائع رغيفاً من منزل غني ليسد به رمقه فيسجن اسبوعاً ، وتسرق الشركات الرأسمالية فلوس الارامل والايتام ليبطر بها مديروها ويبذروها على موائد القمار وفي ملاهي الفحشاء فتغض الحكومة طرفها عن تلك الشركات وتسن لها القوانين لحمايتها وتمكينها من الاستمرار في ابتزاز الشعب وارهاقه !.. هذه هي الحكومة يا عم « بيل » : الاقوياء جميعهم متفقون على الضعاف ليظلوا وحدهم مسيطرين...

« لقد شوهوا الحكم الديموقراطي ، وعبثوا بحقوق الانسان ، وضللوا الناس وحملوهم على الاعتقاد ان هذا العهد الفاجر الظالم الدنس هو عهد الديموقراطية كي يقرفه الناس ويكفروا به ، في حين انه عهد الطغيان والنفاق والدجل واللصوصية . وسيتابع الاقوياء حملتهم على الانظمة النيابية والحياة الدستورية حتى يقضوا على الحريات جميعها ويخلو الجو لجشعهم واستبدادهم ...

«وسيأتي يوم نرى فيه بعض الشعوب مخدرة بمورفين هذه التعاليم المسمومة فتستسلم للذئاب وتصبح البشرية تحت رحمة النزعات الفردية والاهواء الكيفية ، مهددة بين ساعة واختها باخطار المجزرة الرهيبة.. اف ، اف ... لقد قربت ساعة الغداء ، وحكينا اليوم كثيراً يا عم « بيل » ، فلنبق شيئاً الى غد ، مع السلامة ! الله يوفقك!..»

وانسلت الى بيتها ، ومضى البائع يسعى في مناكبها.

كرنكبيل امام الرأى العام

الخمر منعش يشرح الصدر ! « قليل من الخمر يفرح قلب الانسان» فلنشرب !..

وطفق يقف في كل منعطف ويشرب كاساً ، ثم يبصق على كفيه الكانبتين ليطريهما ، ويمسك بمقودي العجلة ويدفعها الى الامام

استوقفته احدى الشاريات واخذت تقلب البقول

وخطر ببالها ان تمازحه فقالت :

— ما بك اطلت غيابك يا عم بيل ؟ لقد مضت علينا ثلاثة اسابيع لم نرك فيها ، فما جرى لك ؟ هل كنت مريضاً ؟... ان على وجهك اثر النحول

فاجابها بعنف :

كنت اعبث وامرح .. في احضان الحسان !

فاحمرت ، وعادت الى دارها دون ان تشتري

ومرت الايام الاولى واذا بزبوناته يملن عنه ،واحدة بعدواحدة ، الى الباعة الاخرين ، فبدأ اليأس يدب الى صدره

ـــ يا سيدة كو انترو !..يا سيدة كو انترو !.. معي اليوم احسن انواع الكرفس ، والسعر لا يزاحم

ـــ لا احتاج الى شيء

ـــ معي طماطم ممتازة ،طماطمي اشهى الطماطم يا سيدة كو انترو ، السعر لا يزاحم

ـــ قلت لك اني لا احتاج الى شيء

ـــ كيف لا تحتاجين الى شيء ؟ انك ، على كل ، لا تأكلين من الهواء ، ولا بد لك من شراء شيء !

فنظرت اليه بازدراء ، ودخلت الى فرنهـا دون ان تجيب بكلمة واحدة

وصار معظم نساء الحي يشحن بوجوههن عنه ،وقد كن الى عهد قريب يتألبن على عربته المخضوضرة بالبقول ، والملونة بمختلف انواع الفاكهة ، وما يتركنها الا فارغة ، وقد امتلأت جيوبه بالفلوس والارباح ...

ما بال الناس تتنكب عنه وتقاطعه ؟

ووصل الى دكان السيدة بايار بائعة الاحذية ، الى المكان الذى بدأ منه شقاؤه ، حيث وقعت حادثته مع الشرطي ، فهزته الذكرى المريرة واجمدت الدم في عروقه

ومسح ، بابهامه ، العرق البارد المتصبب على وجهه ، ونظر الى البائعة نظرة السميح الغفور ، وناداها :

— سيدة بايار ! ... يا سيدة بايار ..

سكوت ..

— يا سيدة بايار : انك مدينة لي بقرشين ونصف القرش ، من المرة الماضية

وظلت البائعة لا تبالي به ، فلم تدر وجهها صوبه ، ولم يبد عليها اي اثر لندائه وكلامه ، بل بقيت وراء مكتبها مستصبية بتبرجها وملبسها الانيق

غضب الشيخ فقال ببعض التأنيب :

— ماذا ؟ .. انعملين حالك سيدة خطيرة ولا تردين على الفقراء؟ من يريد ان يكون عظيما يجب ان يبرىء ذمته ... لماذا تصرين على السكوت ؟ ... الاني اعرف اصلك وفصلك ؟ ... انسيت سوء سلوكك قبل ان ينخدع بك مسيو بايار ويعطيك اسمه ، ويشبعك ،

ويجعلك سيدة ؟ .. لا تتكابري فانا اعرفك منذ ثلاثين واربعين سنة افسد البنات سيرة . ادفعي ما عليك قبل ان تعملي حالك عظيمة !

ولا نعلم ما الذي حرك بائعة الاحذية واغضبها : اهو تحقيرها ام فضح عمرها ، فالتفتت الى كرنكبيل وصاحت :

— سكير ويهين الناس ! امش في طريقك يا مجنون !

ووصل الى المنعطف فاحس الظمأ يحرق احشاءه :

قليل من الخمر يشرح الصدر ، فلنشرب !

كاس ، اثنتان ، ثلاث ...

الدنيا تدور ...

ومشى يجر عربته ، لا يعرف الى اين

وصل الى دار السيدة لابون ، زبونته الكريمة الوفية ، فوجدها تشتري البقول من البائع مارتان ، ذلك الغلام الابله القذر ، الذي يشتري بقايا الاثمار ويبيعها غالية فتأثر منها . وزاد في تأثره انه سمع مارتان يقسم لها قائلا : « والله العظيم ، هذا الملفوف احسن ملفوف في باريس كلها ... والله العظيم ، لن تجدي بقولا مثل التي معي ، انا انظف بائع ، واسعاري لا تزاحم ، وليس في المدينة من يبيع مثلي ! ... »

سمع كرنكبيل هذا القسم الكاذب فاشمأز ، وغضب ، وثارت

الغيرة في صدره فدفع عربته الى عربة مزاحمه حتى صدمتها .

والتفت الى السيدة لابون وقال لها بلهجة متطأطئة ، عاتبة :

ـ لماذا تخونينني ؟ .. هذه البقول التي تشترينها قذرة باليـة . اما عاد بيعي يعجبك ؟

... مارتان غلام ابله ، لم يجرأ على تأنيب كرنكبيل ، لا سيما وقد شعر انه يعتدي عليه بمزاحمته في عقر داره . اما السيدة لابون فتجرؤ على تحطيم رأس كل من يمسها بازعاج ، مهما كان المعتدي عليها عظيما . وها هي تستاء من لوم البائـع الحسود وتقطب ، ولكنهـا لا تجيب ، لا تكبراً ولا استعظاماً ، ولا احتقاراً له ، فهي تعرفه وتعرف نفسها حق المعرفة : كلاهما من طبقة واحدة متساوية ، ولكنها تفضل ان لا تعامل شخصاً خارجاً من السجن ، فاعرضت عنه بتقزز

وهو يعرف الشارية منذ عهد بعيد ، ويعرف دخائلها .. وكيف تعيش .. ومن ينفق عليها .. واذن ، فليست هي التي تستطيع ان تتحدد بعامل شريف مثله ، يأكل خبزه بعرق جبينه ، فصاح في وجههـا يهينها :

ـ يا خبيثة !.. روحي من وجهي !

نسي كرنكبيل ان سلوك الانسان الشخصي ، في غرفته ، يخصه وحده ولا علاقة للاخرين به . وان النساء اللواتي تحـاط اسماؤهن

بالتكريم والتعظيم ، وترفل بالطهارة والقداسة ، لا يعرف احد مايفعلنه في خدورهن ، ولو ان الناس تحاكم على دخائلها لما ثبت فوق الغربال الا حفنة ضئيلة جداً من البشر . تجاهل كرنكبيل ان القديسين لا يعيشون على الارض ، ولا يستطيعون ان يعيشوا عليها .. ونسي انه كان حكيما يغض النظر عما تفعله « زبوناته » في مخادعهن ، ويتجاهل امرهن ، ولا يحتقرهن ، وان كثيرات منهن كن صادقات في معاملته وكان هو يكتفي منهن بهذا الصدق ويتغاضى عما سواه .. نسي ذلك كله وتأثر من شراء زبونته من مزاحمه فسمح لنفسه بهذا التعريض الشائن ، غير المشروع

وجنت السيدة لابون لتلك الإهانة الفظيعة فارجعت الشتيمة له شتيمتين ، وازود . وتحمس مارتان الابله فشاركها في تعييره ، وانهالت الشتائم على الشيخ كزخ المطر ، ففلت لسانه عليهما باقذر ما حفظه في حياته الطويلة من انواع السباب

ووقف المارة يسمعون ويضحكون ، وطفق بعضهم يحمسه ، والاخرون يحمسون المرأة ومارتان الابله ... واخيراً ضاق صدر كرنكبيل ذرعاً بهيئيه ، فهم بضربهما ، ولاقاه الاخران بالمثل ، واذا بشرطي السير يصل ليعرف سبب الازدحام ، فجمد كل من الثلاثة في مكانه ، واطبق فمه !

وتفرق الناس ، فمشى الشيخ كئيباً مضطرباً ، ونفسه لما تحمد

ثورتها . ولما وصل امام السيدة تالان ترك عربته في البـاب وجلس يبكي .

ـــ ما بك يا عم بيل ؟... الا تنتهي قصتنا ؟... ماذا جد ؟...

ـــ الخائنة ... الخبيثة... انا اعرف الناس بقذارتها وفجورها . يجب ان تغسل فمها قبل ان تهينني !

واستسلم للنحيب .

فاخذت السيدة تالان تسكن جأشه فسكن ، ثم عرفت حادثته الجديدة فعاتبته بالحسنى قائلة :

ـــ كيف تسمح لنفسك ان تغتاب مثل السيدة لابون التي كانت تعطف عليك كاخت ...

ـــ كانت !

ـــ وهب انها اساءت اليك فهل يجوز ان تسبها وتنسب اليها تهماً لا يعنيك منها شيء ، سواء اكانت صحيحة ام كاذبة ... كل انسان له كرامة يا عم بيل : اللص نفسه ، حتى اللص ، يغضب اذا ذكرته بانه لص ، فكيف تريد ان تسكت السيدة لابون عن اهانتك الخطيرة؟ كل منا مسير لا مخير في هذه الحياة ، وكثيراً ما يضطر لان يحترف مهنة او يعمل عملا وهو مكره على ذلك ، ثم ان في كل طبقة ، وفئة ، افراداً صالحين . فاذا كانت السيدة لابون قـد فقدت نعمة الايمان ،

وحرمت التربية البيتية المسيحية فضلت في « سيرتها الخاصة » سواء السبيل ، فهي على كل صادقة امينة ، لا تغدر ولا تغتاب ، ولا تنم ، ولا تتعجرف ، ولا تحسد ، ولا تضر بمخلوق ، وانها فوق ذلك كله محسنة ، غيورة ، خيرة ، تطعم الفقير اللقمة التي في فمها . وهي افضل من مليون « سيدة ! » تخدع الناس بمظهرها الخارجي وتكون خائنة عهد الزواج وعهد الامومة . كم من سيدة تدنس بينها العائلي ، حرمها الاقدس ، وتدوس حق زوجها واطفالها عليها باقذر الفحشاء ، ثم تظهر امامنا بلباس الفضيلة والعفاف وترغمنا تقاليد المجتمع على احترامها وهي ، في داخلها ، مجرمة مرتين : لانها سافلة وغدارة ، فتستحق دق الرقبة !

ورجع رشده اليه رويداً رويداً ، فندم على اهانته السيدة لابون وذكر انها كانت من خيرة الشاريات ، تربحه كثيراً ولا تحب المساومة ، وقد توطدت بينهما الالفة ، وطالما تحدثا عن الحياة التي ينوي كل منهما ان يحياها في الغد ، وطالما تبادلا الرأي فيها : هي الان تقترعلى نفسها وتوفر قليلا من هنا وقليلا من هناك ، لترجع الى قريتها ، عند ذويها ، فتشتري قطعة صغيرة من الارض تزرعها وتبيع بقولها ، وتكتفي بهذا العيش الوادع عن صخب المدينة وفجورها ، وتتحرر من حياة في باريس تذيب صحتها وشبابها ونفسها وقلبها ، وتكلفها فوق وسعها . وهو ، يحلم بان يقضي ما بقي من شيخوخته في ضيعة هادئة ، يعمل في

البساتين ويربي الدجاج، وينام في الصباح ملء عينيه ، ويسمع اغاريد الطيور الشجية ، ويلاعب تلاميذ المدرسة ، ويدخن غليونه في جذع الصفصافة، او على ضفة الساقية، او في ظل الصخرة الضخمة المتعالية! آه ، ما اعذب هذا العيش ! بعيداً عن الناس ، عن الماكرين الغادرين ، عن الذين ينفر قلبك من قلوبهم السخيمة وتشمئز نفسك من نفوسهم اللئيمة .

ندم كرنكبيل على اساءته الى السيدة لابون وقال في نفسه ، متفلسفاً : يجب ان اعتذر اليها ، واسترضيها ، فهي لا تستحق هذه الاهانة . ماذا يعنيني من سلوكها ؟ انها ليست زوجتي ، ولا ابنتي ، ولا يهمني منها الا ان تشتري بقولي وتربحني . الحق مع السيدة تالان

ووصل الى حانة المنعطف وشرب كأساً

وهم بالانصراف، واذا بخباز الحي — خبازه — يدخل

بين الاثنين صداقة وطيدة تمتد الى ابعد من اربعين سنة ، فقد كان البائع يخبىء للخباز اطيب الفاكهة ، ويقابله هذا باطيب الخبز ، وكثيراً ما كانا يلتقيان يوم الاحد في هذه الحانة ويقضيان الساعات الطوال في لعب الورق

واصدر كرنكبيل امره للغلام :

ـ هات كاساً للعم شارل ، وكاساً لي ايضاً

وجلسا في زاوية الحانة يتحدثان :

ـ كيف الشغل يا كرنكبيل ؟

ـ مثل هذه الايام !

ـ الايام سوداء !

ـ والشغل اسود !..

وتنهد الشيخ بملء رئتيه ..

ثم قال : هذه الحبسة ما كانت بالبال ولا بالخاطر وانما جاءت شؤما علي : لقد خسرت معظم زبائني ، ولحظت الناس يجتنبون الخارج من السجن كما يجتنبون الموبوء ، يجتنبونه وان بريئاً ! لا افهم لماذا تهرب « زبوناتي » مني . يظهر اني لم اعد لائقاً لبيع البقول !.. تصرفهم هذا معي ليس من المروءة في شيء . اني لم اذنب ، لم اقل « تقبر البقر ! » ولكن اكثر سكان الحي لا يصدقون انكاري ويظنون في باطنهم اني كاذب واني اهنت الشرطي ، فتراهم يهربون من وجهي ولا يشترون مني !

وهز صديقه من كتفه وقال له :

ـ اسمع يا شارل ، هب اني اهنت الشرطي ذا الرقم ٦٤ فما علاقة هذه الحادثة ببيع البقول ؟ هل يجوز ان تكسد بضاعتي واموت جوعاً

اذا اختلفت مع ذلك الجلف ؟ وهو الذي اعتدى علي وافترى !

وكان الخباز ذكيا يفهم الحياة فهما صحيحاً ، وقد جرب الناس وعرف ذهنيتهم ، وعلمه الاختبار ان يرى بعينيه لا بعيني سواه. فصار على تدينه الشديد وتعلقه باهداب التقاليد الكاثوليكية ، وخضوعه الكامل لتعاليم الكنيسة، يميل في سياسته الدنيوية وتفكيره الاجتماعي الى احزاب اليسار ، الاحزاب الثورية المتطرفة التي يحاربها معظم رجال الدين عن جهل وتعصب ، ويحاربها جميع رؤساء الدين عن خوف من تعاليمها التحريرية وآرائها الجريئة المنطقية الصحيحة. فاصغى الى البائع الشيخ بتأثر ، ثم نفخ بدخان غليونه جانباً ، واجاب :

— اذا كان المجتمع يعاقب كل انسان على ذنبه فالضرائب التي يؤديها المكلف لا تفي بحاجة هذا المجتمع لبناء السجون . ولكن ثق يا صاح ان المذنبين الرئيسيين، كبار المجرمين، حلفاء الخطيئة واصدقاء الشيطان ليسوا في السجون ، لان القانون لا يتناولهم ، والحكومة عبدة ذليلة امام شهواتهم الشريرة .. حادثتك المؤلمة عنوان فساد الانظمة والقوانين المفروضة علينا فرضاً والتي يجب ان ندكها من اساسها دكا ! كلنا يشكو من حاله غير اننا لا نفكر في السبل التي توصلنا الى تبديل هذا الحال ! انا ، كمسيحي مؤمن، اخضع للقوانين المفروضة ولكني في الوقت عينه اسعى بملء قواي وامارس جميع الحقوق المشروعة لسن انظمة وقوانين غيرها . ديانتي ديانة المحبة والتسامح . ولكنها

ديانة الحق والعدل ايضاً ، توجب علي ، توجيهاً ، ان اقوم في وجه الظلم والظالمين ، لان الظلم عدو المسيحية ، ويقضي على ابرياء كثيرين . وهو لا مقياس له ليتقيه الناس . والظالمون يبيحون الرذائل والمحرمات ويكون عهدهم شراً على العباد

وصمت الخباز قليلا ليلمس تأثير كلامه في الشيخ ، فرآه رازحا تحت اعباء الهم والاكتئاب ، فاغتنم الفرصة ليقول له :

— اسمع يا كرنكبيل : لا يجوز ان تكسد بضاعتك فتموت جوعاً لانك اختلفت مع شرطي السير ، ولكن لا يجوز ان تستسلم لليأس فتموت وانت حي ، وتصبح عالة على المجتمع

وسكت لمحة البرق وفجأ جليسه بهذا السؤال :

— هل جربت ان تصلي ؟ الصلوة ينبوع الامل ، تعزي الانسان وتشجعه على احتمال الاوصاب ومقابلة الشدائد بعزيمة وصبر ، انا في مثل هذه الظروف اصلي والصلاة تقويني وتنفعني كثيراً

فحملق الشيخ فيه وسأله :

— وهل الصلاة ترد لي زبوناتي ؟

— ربما ...

— حتى وان خسرت معظم رأسمالي ؟

— ربما ...

ـــ حتى وان عجزت عن شراء البقول الطيبة وارضاء الشارين ؟

ـــ ربما .. ليس على الله شيء عسير !

فشده كرنكبيل لهذه النغمة الجديدة التي بدأت تطن في اذنيه . وخيل اليه انه يرجع الى ايام قضيته في المحكمة اذ كان يسمع كلاما لا يفهمه، ويرى اشخاصاً بمظهر مستغرب والبسة لم يالفها نظره، وتمر به امور لا يستطيع تفسيرها :

الصلاة ترد له زبوناته !

وبسذاجة كاملة قال :

ـــ المسألة هينة جداً .. ما فكرت بذلك قبل الان ، ربما .. من يدري ؟ قد تكون الصلاة مفيدة !

ولكن ذهوله لم يطل ، وانتبه حالا :

ـــ ماذا تقول يا شارل ، هل انت مجنون ؟ اذا كانت الصلاة ترد لي زبوناتي فمارتان الابله ، الا تعرفه ؟ الغلام القذر المعتوه الذي يبيع البقول البالية ـ يستطيع ان يصلي ويربح اكثر مني ، لماذا لا تجلب الصلاة الزبونات اليه ، وتبقيهم له؟ واذا كانت الصلاة تنفع بهذا القدر فلماذا لا يلجأ الناس اليها ؟ واذا كان الناس يلجأون اليها فعلام كثرة البؤساء والاشقياء ، والضعاف والمظلومين ؟

ـــ اتظن ان الناس جميعهم عندهم ايمان ؟

ـــ اذن كيف اصلي ، وانا ـ لسوء حظي ـ لا ايمان عندي

ـــ جرب .. تعود ان تصلي ، فالعادة الحسنة تؤدي الى نتائج حسنة ، والصلاة تنفع دائماً ، ان الله تعالى يدبر العالم بحكمته ورأفته ، فاذا صليت ورأى ان في طلبك نفعاً لنفسك استجاب دعوتك حالا

ـــ ماذا ؟.. هل يرد « زبائني » وفلوسي التي اضعتها ؟

ـــ اذا وجد في ذلك خيراً لنفسك فنعم !

ـــ اذن ، فالمسألة متعلقة به اكثر منها بالصلاة

ـــ ما هي الصلاة يا صديقي ؟ « هي ارتفاع النفس الى الله لتعبده وتشكره وتعرض عليه حاجاتها وتطلب منه النعمة .. وينبغي ان نصلي باسم سيدنا يسوع المسيح الذي وعدنا بان كل ما نطلبه باسمه ننالـه»(١)

ـــ واذا لم يلب طلبي ؟

ـــ لا يجوز ان يكون في الصلاة شرط يا كرنكبيل ، والله تعالى اعقل منا ويعرف طريق خلاصنا اكثر منا . انه رحيم حكيم : فاذا وجد ان في ارجاع الزبائن اليك نفعا لنفسك ارجعهم حالا ، والا فهو

---

(١) « التعليم المسيحي لطلبة المدارس ـــ نشره المرسلون اليسوعيون » ـــ المطبعة الكاثوليكية ـــ بيروت . ص ١٠٣ و ١٠٤

يمنحك نعمة العزاء والصبر ، وهذه النعمة هي اغلى والذ ما على هذه الارض .

— لا افهم جيداً ما تقول يا شارل ، احك على مهل

— قلت ان الله تعالى يمنحك ، بصلاتك ، نعمة العزاء والصبر فتستعيض بها عن الزبائن وتعيش بسعادة علوية لا يشعر بها الا القلائل

— كيف ؟ هل تطعمني نعمة العزاء والصبر خبزاً ولحماً وتسقيني خمراً معتقاً ؟

— لا ، وانما تعطيك شيئاً أثمن : تريحك من التفكير باللحم والخمر المعتق اذ تشعر ان لذة هذه النعمة تكفيك ، وتغنيك عن كل شيء ، وترفع بك الى عالم اخر تتدفق فيه الخيرات والبركات

— ؟ ... ! ..

— ما بك يا كرنكبيل ؟

— من ؟ ... أأنا ما بي ؟

— صل ، جرب أن تصلي ، صل دائماً ، ففي الصلاة عزاء وامل

واستأذن الخباز صديقه ومضى ، فنادى كرنكبيل الخمار وحاسبه . ثم سأله :

— هل ابكر العم شارل في المجيء الى الحانة اليوم ؟

— لا .. بل جاء بعدك

— كيف ؟ ألم يأت ويشرب قبلي ؟

— لا

فاطرق الشيخ وسبح في جو فسيح

ثم غمغم :

— خيل الي انه شربان ... فقد كان يحكي كالسكرانين !

مضت الايام ومضى كرنكبيل يمعن في السكر ، ويلهو في كل مكان ، ويضحو في نومه ، ويتأخر عن موعد بيع البقول في سوق الخضرة فلا يجد الا الاثمار البالية الرديئة

ومضى الشقاء يضيق في صدره ، فشرست اخلاقه وتلاشى فيه ذلك البائع الوديع اللطيف الرصين ، وانقلب الى بائع فظ قاس ، لا يحتمل المساومة ولا يغفر للناس اية حركة لا ترضيه

انصرف عنه زبائنه جميعهم ، حتى اصدقاؤه الذين يحبونه ويعطفون عليه اضطروا لان يشتروا ما يحتاجون اليه من سواه لان بقوله ذابلة وما يحمل منها الا البقايا الرديئة . هذا اذا قام الى عمله !

واضطر لان ينفق على عيشه من رأسماله ، وصار يشرب الخمر طيلة

النهار ، ولا يربح فلساً واحداً ، فاذاب ثروته الصغيرة التي قترها برصانته وحكمته طيلة نصف قرن كامل ، وصار لا يملك شروى نقير

وبات يحس انه انسان جديد غير الانسان الذي عرف فيه نفسه : اين منه تلك القوة وذلك النشاط في العمل ؟ وذلك الاتقان ، بل ذلك الذوق في ترتيب البقول والأثمار في العربة ؟ وصياحه ، كالديك الفصيح ، يشق الفجر ؟ اين هو الان من تلك الايام المثمرة المفيدة التي كان فيها « حصاناً بشريا » ينقل الخضارة الطريئة والبقول المخضوضرة ـ خير الارض المباركة الكريمة ـ الى ابناء المدن المنهمكين باعمالهم ، والمنغمسين بجفاف التكالب المستمر

اين هو من تلك الايام الحلوة ، وذلك العيش السعيد ؟

لقد بعد هناؤه عنه . بعد كثيراً حتى صار خبراً في الغيب . وهوذا الشقاء الاسود يجلببه

جاء الشتاء ! ... فصل الضيق والعوز ، كابوس الفقير ، وهم العيال المستورة

ياويحه ، ليس في جيبه فلس

مرت عليه ايام لم يأ كل الا وجبة واحدة فيها ، فما تراه يفعل الان ، وغداً ، والضيق يشد على خناقه ؟

لقد طردوه من غرفته . اقصوه عن ذلك المكان الامين الذي

سرحت فيه خيالاته ، وطافت افكاره ، ورقصت عواطفه مدة خمسين سنة ، فصار قطعة من حياته ومستودع ذكرياته . سلخوه عن اوفى رفيق حنا عليه في نهاراته ولياليه ، ورد عنه عواصف الطبيعة ، واخطارها ، ومضارها ، غرفته الكريمة التي عاش فيها قرير البال

اوى الى الاسطبل حيث كان يزرب عربته ، ونام مع الفيران والجرذان ، والصراصير والعنكبوت ، لا قنديل يضيء عليه ، ولا لحاف يدفيه ، ولا موقدة تكسر سم الزمهرير الذي يرقص عظامه

غارت عيناه وانطفأ نورهما وصار لونهما كلون المياه الوسخة . وامتقع لونه ، ونتأت عظام وجهه

انطلقت لحيته وتبدل لون شعرها الابيض فصار كرماد العشب

ومرت عليه بضعة ايام في هذه العزلة الموحشة فاشتاق الى من يقول له كلمة واحدة

هفا قلبه الى اصدقائه وصديقاته في سوق مونمارتر : الى جاكو الصغير ... والسيدة تالان المحبة ... فمشى اليهما كئيباً ، خجلا بما صار فيه

ولما وصل الى قرب المطبعة شاهد صديقه جاكو يلعب مع رفاقه فاقترب منه ومد يده اليه

جفل الصغير منه ...

— ما بالك يا جاكو ؟... الم تعرف العم بيل ؟ انا العم بيل يا صديقي !

وسكت الصبي مدة يتفرس في وجهه ذلك المنظر المخيف ، وشقله بنظره من تحت الى فوق ، ومن رأسه الى قدميه ، واجاب بنفور :

— لا ... انت قذر ... بشع ... كالشحاذين ... انت لست العم بيل !

فانحدرت الدموع من عينيه ورجع الى مكانه

***

لقد بلغ به الجوع اشده

ولو كان عاملا شرقياً لناء بنكبته واماته اليأس . ولكنه غربي ، ومن فرنسا ، والغربي لا يستكين الى هذا الحد من الارهاق والاذلال مهما صغر شأنه وضعف جانبه ، لا يموت جوعاً وفي بلده فرن ، لا يترك الخبز يتمتع به غيره ، لا يرضى بان يحرم الرغيف وان يؤدي به هذا الحرمان الى القبر . لا ، لا يموت جوعاً وفي المدينة خبز !

ووقف ، وفي باله خاطر ...

ولكن قواه ما لبثت ان تلاشت ، فجبن واحجم !

وذكر اسبوعيه في السجن حيث لا جوع ولا برد ، وحيث الناس فيه عطفوا عليه وحدثوه بلين ، لا يؤنبونه ولا يشتمونه ، فلماذا لا يعود الى الحبس ؟

لقد حفظ الامثولة التي توصله الى السجن وتطعمه وتدفيه وتريحه من الهموم . انها لعبة هينة

فوقف ثانية ، واستجمع قواه وخرج ...

وكان الظلام حالكا ، والمطر ينهمر بغزارة ، والاسواق مغمورة بالمياه ، يطلع من الارض اكثر مما ينزل من السماء ، والطرق خالية من المارة ، والابواب جميعها موصدة دون البرد النافح

ومضى المسكين يطبس في الماء ، ويقع ويقوم ، الى ان وصل الى آخر سوق مونمارتر فوجد الشرطي المولج بحفظ الامن وحراسة الحي واقفاً في الزاوية تحت قنديل الطريق ، ملتفاً بردائه الواسع ، وقد ابتلت ثيابه وقبعته وحذاؤه

ودنا منه كرنكبيل ، فظل واقفاً كالخشبة ، لا يلوي ولا يتحرك

ربما اختار هذا المكان ليستأنس بنور القنديل في تلك الظلمة الموحشة ، ويجعل منه رفيقاً وصديقاً . وربما كان بحاجة الى تعزية ، فالشرطة ، مثل الدرك وكتاب الدوائر والمحاكم وصغار الموظفين ، مظلومون ايضاً . انهم آلة الحكم ، يدورون ويقفون ، ويطلعون

وينزلون ، وهم لا يعرفون من يحركهم ولا لماذا يحركون ! اجورهم زهيدة ، واعمالهم شاقة ، وتبعاتهم جسيمة ، وفي بعض مهماتهم خطر الموت ، وليس من يقدر جهودهم . هم يمنون ويثمرون والرؤساء يستغلون !

وكاد كرنكبيل يلصق بالشرطي ، وبصوت خفيض ، راجف ، قال له : تقبر البقر !

ثم انتظر وقع كلمته عليه فما بدا من الموظف اقل اهتمام ، بل ظل جامداً في مكانه ، والقى على مهينه نظرة احتقار ممزوج بالشفقة

ودهش الشيخ من صمت الشرطي فكرر اهانته مغمغما :

ـــ قلت لك : « تقبر البقر ! » .. ألم تسمع ؟

وسكت الموظف طويلا ، واخيراً قال :

ـــ هذا كلام لا يليق برجل مثلك .. ثق اني لا استحقه .. من كان في سنك يجب ان لا يجهل هذه الامور .. امش في طريقك !

ـــ لماذا لا توقفني ؟

ـــ لو اننا نوقف جميع السكارى الذين يتلفظون باقوال لا يجوز ان تقال لكنا لا نستطيع عمل شيء آخر .. ولكن ما هي الفائدة من هذا التوقيف ؟

ووقع هذا التحقير من نفس كرنكبيل موقعاً شديداً فجمد في

مكانه ، ورجلاه في الماء ، والزمهرير يقطع مصارينه . وصمت حائراً

وقبل ان يمشي في طريقه حاول ان يفهم الشرطي مقصده فقال :

ـ كلمة « تقبر البقر ! » لم اقلها لك ... لا لك ولا لسواك قلتها ، وانما لي مارب اخر

فابتسم الموظف ابتسامة جافة واجاب :

ـ كلمتك في غير موضعها ، سواء اكانت لمأرب او لاخر ، فان الرجل الذي يتجرع الاتعاب المضنية والعذابات المريرة في اتمام واجبه لايستحق الشتم والتحقير ، اني اكرر لك القول بان تمشي في طريقك !

واطرق الفقير ، وانسل ، تحت المطر ، في الظلام !..

* * *

بعد يومين نشرت صحف الصباح هذا الخبر :

« عثر في السين على جثة رجل عجوز وقد دل التحقيق على انه بائع بقول يدعى جيروم كرنكبيل ، كان كسولا ، سكيراً ، شرس الاخلاق ، سجن مراراً (كذا !) لسوء سيرته

« لا يظن المحققون ان في الحادثة جريمة . ويميلون للاعتقاد ان الرجل انتحر ، او كان سكران فوقع في النهر » انتهى قول الصحف

* * *

رحم الله كرنكبيل ، ورحم كل فقير يجره سوء طالعه الى القضاء والصحف !

DATE DUE

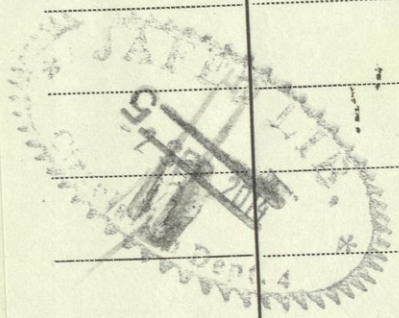

يزبك ،يوسف ابراهيم
فقير امام القضاء
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031981

893
.81 F